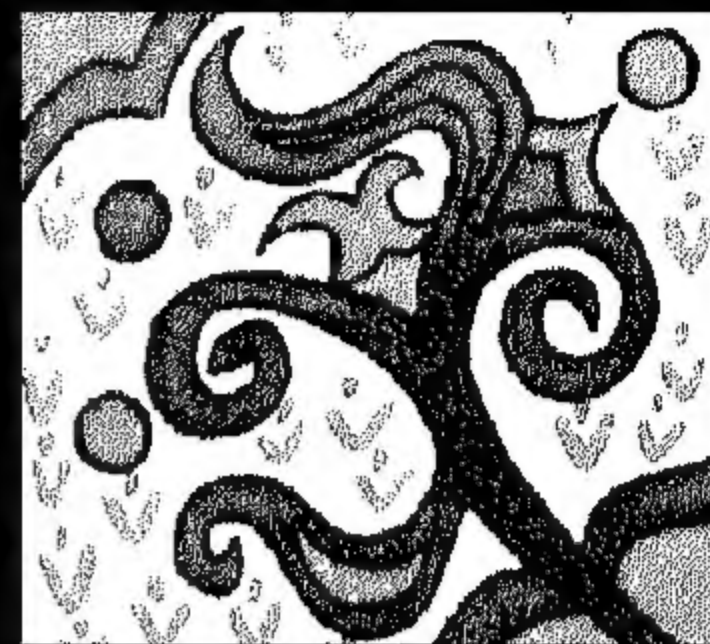
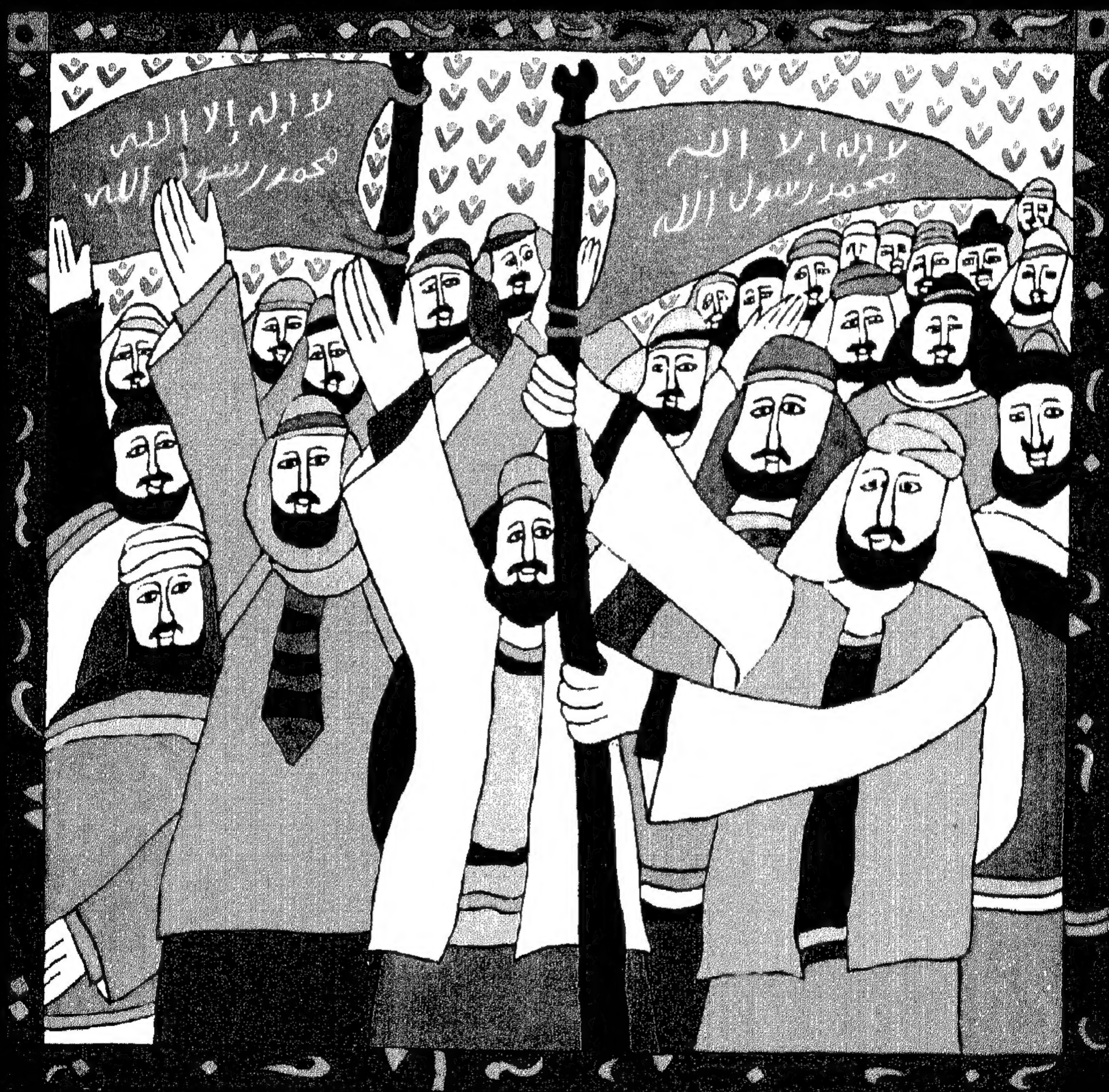


سيرة الخلق

الفتح المبين - حجة الوداع



٥



دار الشروق

سُبْحَانَكَ يَا خَلِّقُ
الفتح المبين - حجة الوداع

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة ١٦ شارع مواد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) بلكس SHROUK ON
دوت ميل ١٠٦٤ - هاتف ٣١٥١٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فيلا ٨٦٧٥٥٥ - بلكس SHROUK 2017 11

سجد الخلق

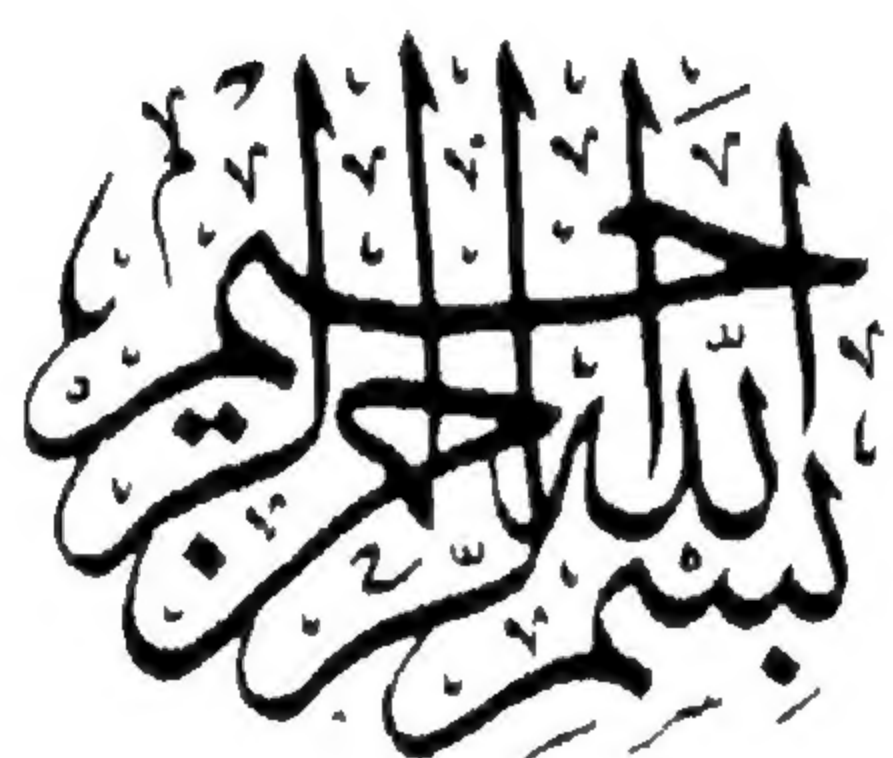
صلى الله عليه وسلم

بقلم: كريمان حمزة • رسوم: صلاح بيصار



الجزء الخامس

دار الشروق



عُمْرَةُ الْقَضَاءِ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ هِجْرِيًّا

عِنْدَمَا أَهَلَ شَهْرُ ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ هِجْرِيًّا . .
اسْتَعَدَّ رَسُولُ اللَّهِ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ ^(١) وَهِيَ الْعُمْرَةُ الَّتِي اعْتَرَفَتْ لَهُ
بِهَا قُرَيْشٌ فِي صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَعَهُ أَلْفَانِ مِنَ
الْمُعْتَمِرِينَ غَيْرِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ . . وَاسْتَخْلَفَ أَبَا ذَرٍّ الْغِفَارِيَّ
بِالنَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَسَاقَ الْهَدْيَ سِتِينَ بَدَنَةً ثُمَّ رَاحَ يُلَبِّي وَالْمُسْلِمُونَ
مِنْ خَلْفِهِ يُرَدِّدُونَ .

وَكَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْمِسْلَمُ كَيْسٌ
فَطِنٌ » ^(٢) .

فَقَدْ اسْتَعَدَّ لِأَيِّ غَدْرٍ فَحَمَلَ مَعَهُ السِّلَاحَ وَالْخُوذَاتِ وَالذُّرُوعَ
وَالرِّمَاحَ وَقَادَ مَعَهُ مِائَةَ فَارِسٍ . . وَعِنْدَمَا أُرْسِلَتْ قُرَيْشٌ عُيُونُهَا
وَعِلِمَتْ بِهَذَا السِّلَاحِ أُرْسِلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ تَقُولُ لَهُ :

(١) كَانَ عَلَيْهِ عِمْرَةٌ لِأَنَّهُ أَحْرَمَ فِي الْعَامِ السَّابِقِ وَلَمْ تُمْكِنَهُ قُرَيْشٌ مِنَ الْعِمْرَةِ فَتَحَلَّلَ وَكَانُوا قَدْ
اتَّفَقُوا فِي صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى الْعِمْرَةِ فِي الْعَامِ الَّذِي يَلِيهِ .
(٢) كَيْسٌ مِنَ الْكِيَاسَةِ فَطِنٌ . . مِنَ الذِّكَاةِ وَعَدَمِ الْغَفْلَةِ وَالذَّهُولِ .



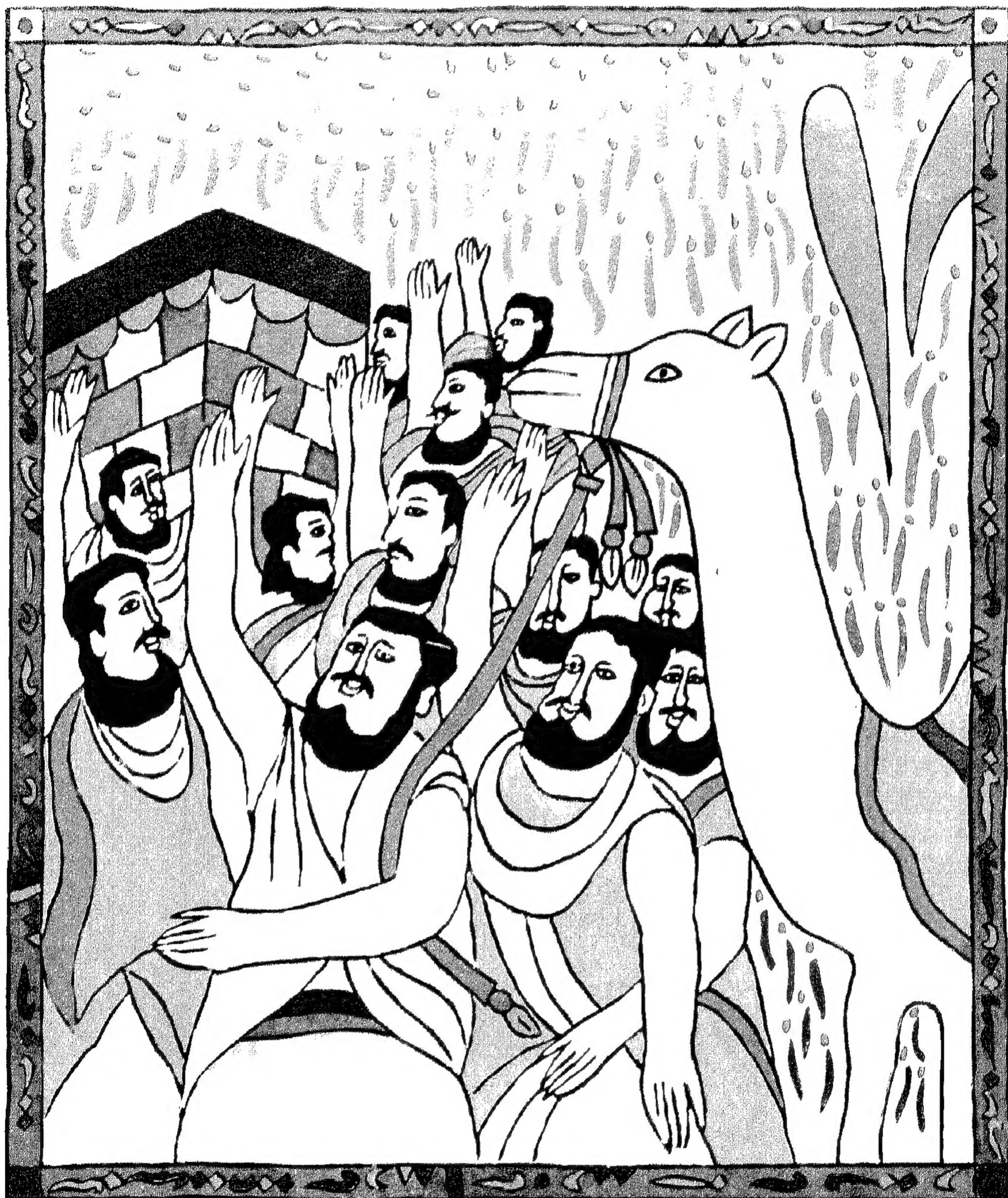
يا محمدُ ما عُرِفَ عنكَ صغيرًا ولا كبيرًا الغدرُ . ولقد شَرَطْتُ في
صُلْحِ الحُدَيْبِيَّةِ أَلَّا تَدْخُلَ إِلَّا بِسِلَاحِ الْمُسَافِرِ وَالسِّيَوفِ فِي الْقَرَبِ .
فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنِّي لَا أَدْخُلُ عَلَيْهِمُ السِّلَاحَ » .
فَقَالَ رَسُولُ قُرَيْشٍ : هَذَا الَّذِي تُعْرِفُ بِهِ مِنَ الْبِرِّ وَالْوَفَاءِ .
ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَّةَ وَطَمَأَنَّهُمْ .

* * *

أَمَرَ زُعَمَاءُ قُرَيْشِ الْجُمَاهِيرِ الْكَبِيرَةِ بِأَنْ تَخْرُجَ إِلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ
حَتَّى لَا يَشَاهِدُوا مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . . خَوْفًا مِنْ أَنْ
يَتَعَاطَفُوا مَعَهُمْ . . وَحَسَدًا وَغِيظًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ .
وَرِغْمَ ذَلِكَ كَانَ فَضُولُ الْعَوَامِ شَدِيدًا فَرَاخُوا يُتَابِعُونَ
تَحَرُّكَاتِ الْمُسْلِمِينَ .

فَأَشَاعَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ أَنَّ مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ قَدْ أَنْهَكْتَهُمُ الْحُرُوبُ
وَأَضْعَفَتْهُمْ الْحُمَّى الْمُنْتَشِرَةُ بِالْمَدِينَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ فُوجِئُوا بِمَنْظَرِ أَثَارِ
الْإِعْجَابِ فَلَقَدْ دَخَلَ النَّبِيُّ مَكَّةَ فِي مَوْكِبٍ مُنَظَّمٍ وَخُشُوعٍ
وَاطْمِئْنَانٍ وَثِقَةٍ فِي النَّفْسِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَطُوفُوا
الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ الْأُولَى مُهْرَوِّلِينَ فِي قُوَّةٍ وَرَشَاقَةٍ وَيَكْشِفُوا عَنْ
مَنَاكِبِهِمْ ^(١) لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوَّتَهُمْ . . وَرَاحَ الْمُسْلِمُونَ يُلْبِثُونَ « لَبَّيْكَ
اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ » وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ آخِذٌ بِزِمَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ

(١) أَكْتَافُهُمْ .



وراح المسلمون يلبون « لبيك اللهم لبيك »

يَرْجِزُ^(١) فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا بَنَ رَوَاحَةَ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَحْدَهُ . . صدق وعده . . ونصر عبده . . وأعز جنده . .
وهزم الأحزاب وحده .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرَدِّدُ « رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَرَاهُمْ
فِي نَفْسِهِ قُوَّةً » حتى تشدَّ التَّلْبِيَةُ والأَدْعِيَةُ والخطُّو المنظم . . حتى
أن أحدَ المُشْرِكِينَ قَالَ مُحْسُورًا : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَى قَدْ
أَضَعَفَتْهُمْ ؟ !

إِنَّهُمْ يَمْشُونَ فِي نَشَاطِ الْغِزْلَانِ !!

وطاف رسول الله سَبْعًا ثم سَعَى عَلَى رَاحِلَتِهِ سَبْعًا . . فَلَمَّا
انْتَهَى السَّعَى عِنْدَ الْمَرْوَةِ قَالَ : هَذَا الْمَنْحَرُ . . وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ
مَنْحَرٌ ﴿ (٢) 》 .

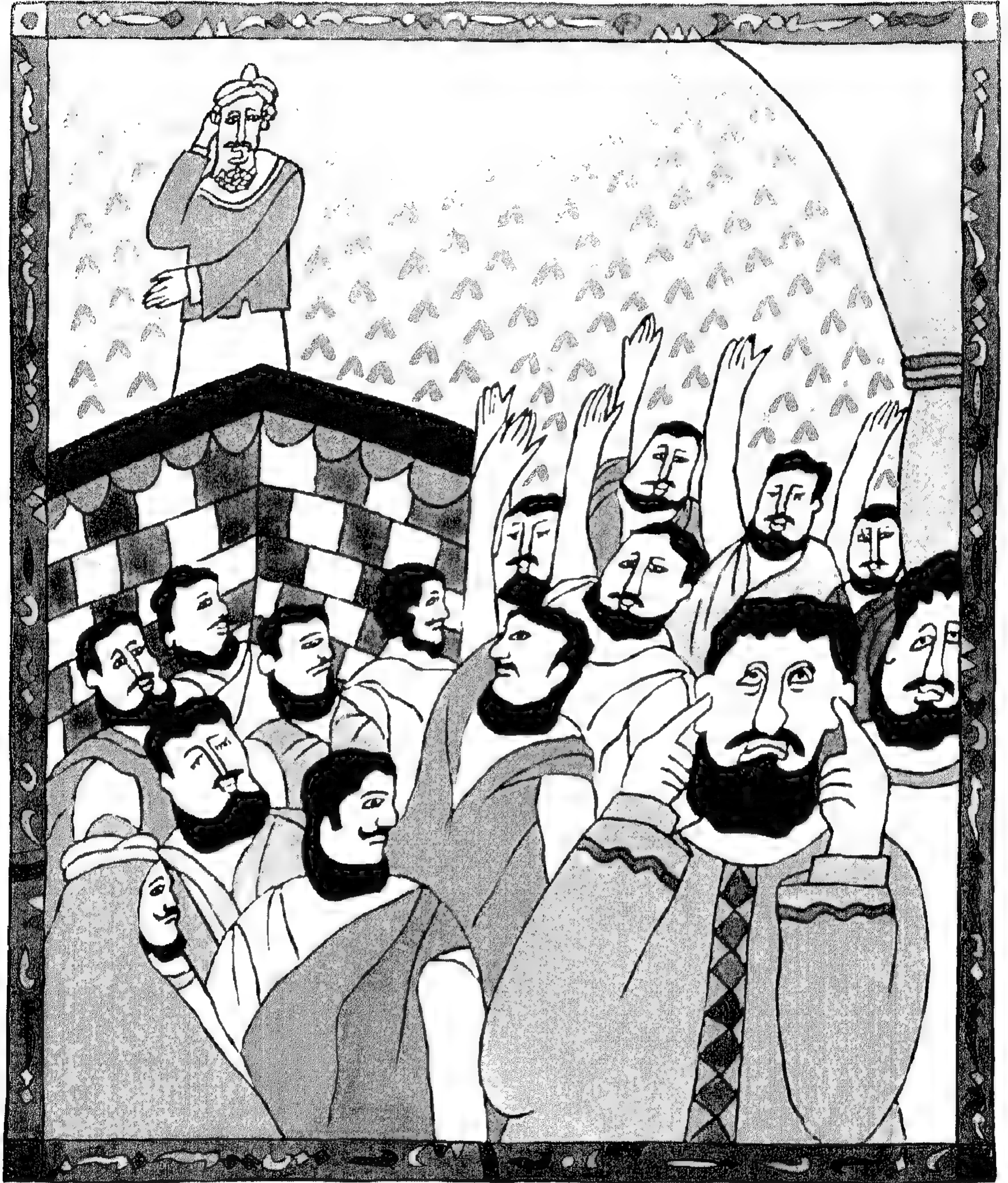
وعندمَا جَاءَ الظُّهْرُ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِلَا لَأ فَاذَّنَ فَوْقَ الْكَعْبَةِ ،
وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ أَذَانٍ فِي الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ فَاغْتَاظَ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى أَنَّ
بَعْضَهُمْ بَلَغَ بِهِ الْحَنَقُ^(٣) أَنَّ سَدَّ أُذُنَيْهِ حَتَّى لَا يَسْمَعَ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ
حَتَّى لَا يَرَى عَبْدًا حَبَشِيًّا يَصْعَدُ فَوْقَ الْكَعْبَةِ وَيُؤَذِّنُ !!

وظَلَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَمَا كَانَ الشَّرْطُ وَفِي
هَذِهِ الْأَثْنَاءِ رَأَى زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ الْأَثَرِ الْعَمِيقَ الَّذِي تَرَكَهُ الْمُسْلِمُونَ

(٣) الغيظ الشديد .

(١) يقول شعرا

(٢) المنحر: المكان الذي يذبح فيه الهدى .



وعندما جاء الظهر أمر رسول الله بلالاً فأذن فوق الكعبة

في النفوس ، فقد رأوا حِرْصَ المسلمين على النظافة والتَّطَهُّرِ
وَحُبِّهِمْ لِنَبِيِّهِم والتِّفَافِهِمْ حَوْلَهُ وإِطَاعَتَهُمْ لأَمْرِهِ ، وكيف يُنْظَمُونَ
الصُّفُوفَ في الصلاة وكيف يَرْكَعُونَ مَعًا ويسجدون مَعًا في خُشُوعٍ
لِلَّهِ وشُكُونٍ يَبْعَثُ على الرَّاحَةِ . . وبدءوا يستشيغون صوتَ بِلَالٍ
وهو يُوذِّنُ للصلاة . . ورأوا حسنَ التعاملِ في البيعِ وَالشِّراءِ
والصدقِ في القولِ . . فخافَ زعماءُ قريشٍ من أَنَّ يَفْتَتِنَهُمْ مُحَمَّدٌ
وَصَحْبُهُ فذهبوا إليه وقالوا له :

- لقد انقضى أجلك فاخرج عنا .

فحاولَ رسولُ الله مُدَاعَبَتَهُمْ فقالَ لَهُمْ :

« وما عَلَيْكُمْ لو تَرَكَتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ ^(١) بينَ أَظْهُرِكُمْ ، وَصَنَعْنَا

لكم طعامًا فَحَضَرْتُمُوهُ » ولكنَّ القومَ خَشَوْا من أثرِ الرسولِ على
النُّفُوسِ فقالوا :- لا حاجةَ لنا في طعامِكَ . . اخْرُجْ عَنَّا .

فَاغْتَاظَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ من هذا الرَّدِّ . . وقالَ للرجل :

كَذَبْتَ ، لا أُمَّ لَكَ ! ليست بأَرْضِكَ ولا بأَرْضِ أَبِيكَ .

فتبسَّم رسولُ الله وقال :

« يَا سَعْدُ ، لا تُؤْذِ قَوْمًا زَارُونَا في رِحَالِنَا » .

وأمر رسولُ الله المسلمينَ بِالرَّحِيلِ عن مَكَّةَ .

(١) أي أقمت حفل عرس أي (زواج) فقد خطب رسول الله ميمونة بنت الحارث وكانت من
كرائم نساء قريش .



فاغتاظ سعد بن عبادۃ من هذا الرد وقال للرجل: كذبت ، لا أم لك ليست بأرضك ولا أرض أبيك

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص :

لم يفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلام رجلين بعد الهجرة كما فرح بخالد بن الوليد وعمرو بن العاص . . فلقد أسلما بعد غمرة القضاء بعد مراحل من العداء والكيد للإسلام . . وعندما علم رسول الله بأنهما قادمان إلى المدينة لإعلان إسلاميهما . . قال لأصحابه « لَقَدْ رَمَتُكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلاذِ أَكْبَادِهَا ^(١) » .
كان عمرو بن العاص من أكثر العرب ذهاء في السياسة وحسن التآني في النظر إلى الأمور . . وكان خالد من أشجع فرسان القتال ومن أفهمهم لفنون الحرب وكان من قادة الفرسان في الجاهلية . . فلما دخلا في الإسلام هز ذلك القرشيين . . وزرع الخوف والقلق في صفوفهم بينما شد من عزم المسلمين وقوى من روحهم المعنوية .

وعندما وقف خالد بن الوليد أمام رسول الله قال : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَذَاكَ . قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَلَّا يُسَلِّمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ » . . قال : يَا رَسُولَ اللَّهِ . . ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي تِلْكَ الْمَوَاقِفَ الَّتِي كُنْتُ أَشْهَدُهَا عَلَيْكَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ :
« الْإِسْلَامُ يُجِبُّ مَا قَبْلَهُ » .

(١) بخير أبنائها .



إسلام خالد بن الوليد

سريّة مُؤتة

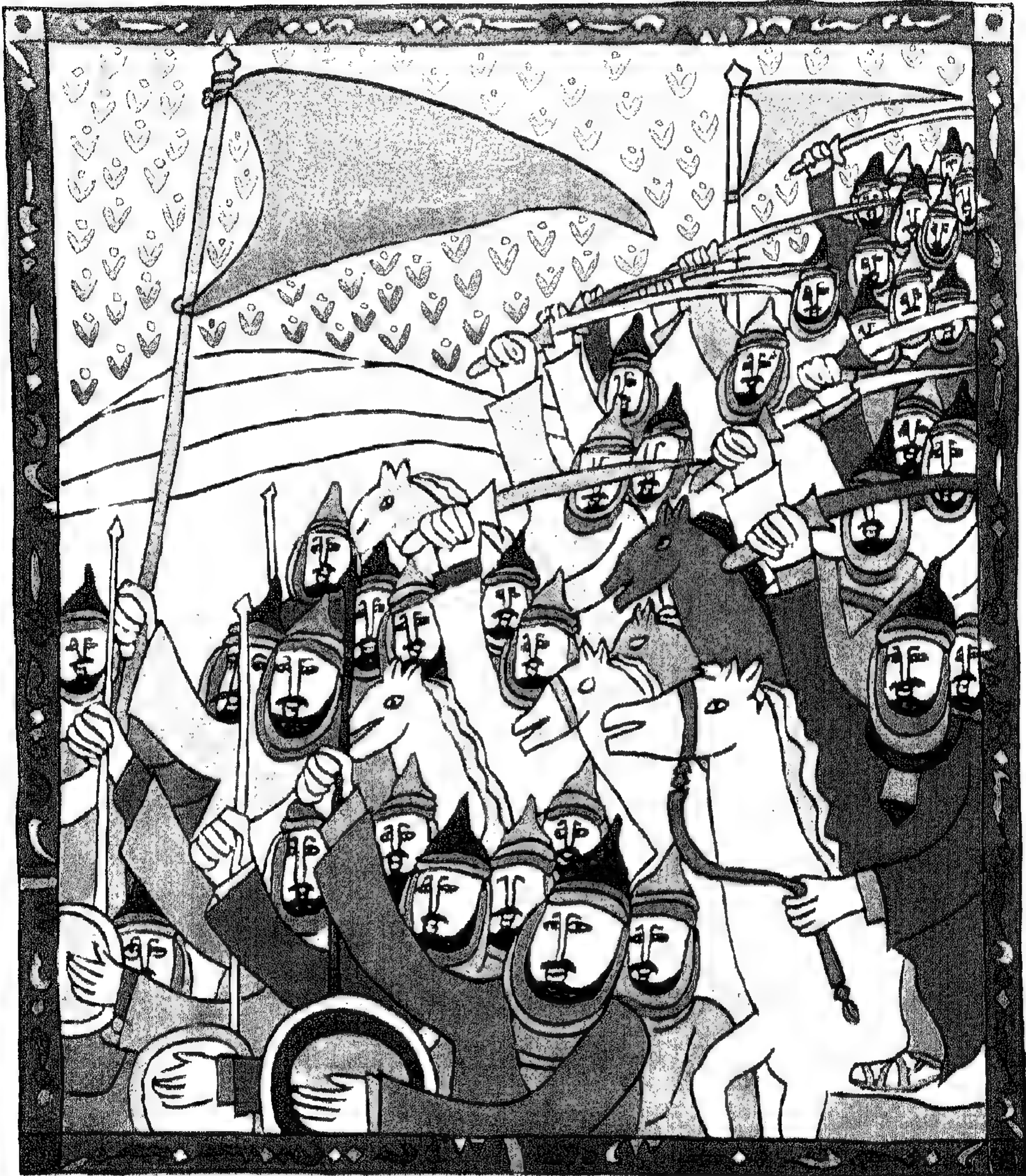
يُطْلَقُونَ عَلَيْهَا فِي التَّارِيخِ غَزْوَةٌ وَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ لَمْ يَحْضُرْهَا وَلَكِنْ لِعِظَمِهَا وَلَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا وَاجَهُوا الرُّومَانَ . كَانَ وَلَا يَزَالُ الْعُرْفُ السِّيَاسِيُّ بَيْنَ الدُّوَلِ أَنْ يُكْرَمَ مَبْعُوثُو الْمُلُوكِ وَالزُّعَمَاءِ ، فَالرَّسُولُ لَيْسَ إِلَّا مُبَلِّغًا عَمَّنْ أَرْسَلَهُ ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُسَيِّءَ إِلَيْهِ مَهْمَا تَضَمَّنَتِ الرِّسَالَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا .

غَيْرَ أَنَّ شَرْحِبِيلَ بْنَ عَمْرٍو الْغَسَّانِيَّ - أَحَدَ عُمَّالِ الرُّومِ عَلَى الشَّامِ عِنْدَمَا لَقِيَ الْحَارِثَ بْنَ عُمَيْرٍ - رَسُولَ النَّبِيِّ إِلَى أَمِيرِ بَصْرَى - سَأَلَهُ عَنْ وَجْهِتِهِ فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ مِنْ رُسُلِ مُحَمَّدٍ أَمَرَ بِهِ فَأَوْثَقَ رِبَاطًا^(١) ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ !!

سَاءَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ وَشَعَرَ بِمُنْتَهَى الْخِيَانَةِ وَالشُّذُودِ الْجَافِ وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرِيصًا عَلَى أَلَّا تُنْتَقَصَ هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ الَّذِي مَلَأَ قُلُوبَ الْعَرَبِ وَالْعُجَمِ^(٢) . . . وَكَانَ السُّكُوتُ عَلَى قَتْلِ الْحَارِثِ بْنِ عُمَيْرٍ أَمْرًا يَحْطُّ مِنْ كِرَامَةِ الْإِسْلَامِ وَيَنْتَقِصُ مِنْ

(١) ربطوه بالحبال .

(٢) غير العرب .



وخرج الجيش في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة

هَيْبَتِهِ . . وَصَمَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قِتَالِ شَرْحِبِيلَ فَجَمَعَ
حَوْلَى ثَلَاثَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ وَقَالَ لَهُمْ :

« أَمِيرُ الْقَوْمِ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، فَإِنْ قُتِلَ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ،
فَإِنْ قُتِلَ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَإِنْ قُتِلَ فَلْيَرْتَضِ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ
رَجُلًا فَيَجْعَلُوهُ عَلَيْهِمْ » .

« وَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ الْقَوْمِ فِي الْبَدَايَةِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَإِنْ أَجَابُوا فَخَيْرٌ
وَبَرَكَةٌ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا فَلْيَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَيُقَاتِلُوهُمْ . . وَأَوْصَاهُمْ
أَلَّا يَغْدُرُوا ، وَلَا يَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا ، وَلَا مُنْعَزِلًا
بِصَوْمَعَتِهِ ^(١) وَلَا يَقْرَبُوا نَخْلًا ، وَلَا يَقْطَعُوا شَجَرًا ، وَلَا يَهْدُمُوا
بِنَاءً » .

وَخَرَجَ الْجَيْشُ فِي جُمَادَى الْأُولَى مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ
(سبتمبر ٦٢٩ م) بَعْدَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ بِنَحْوِ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ ، وَخَرَجَ
مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ فَوَدَعَهُمْ
ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَكَانَتِ الْخُطَّةُ الَّتِي سَارَ عَلَى أَسَاسِهَا الْجَيْشُ أَنْ يُفَاجِئَ الْقَوْمَ
وَيَأْخُذَهُمْ عَلَى غِرَّةٍ . . وَلَكِنَّ الْقَوْمَ وَصَلَهُمْ نَبَأُ تَحْرُكِ الْمُسْلِمِينَ

(١) مكان للعبادة .

.. فَرَاخُوا يَسْتَعِدُّونَ لَهُ اسْتِعْدَادًا بَالِغَ الْقُوَّةِ وَقَدْ عَلِمُوا بِقُوَّةِ
الْمُسْلِمِينَ فَلَمَّا دَنَا الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَأَوْا مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ مِنْ
الْجُنْدِ وَالسَّلَاحِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّبَابِ . . وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ
آلَافٍ مُقَاتِلٍ وَعَدَدُ الْمُشْرِكِينَ مِائَتَيْنِ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ مِنَ الرُّومِ وَمِائَةَ أَلْفٍ
مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ التَّابِعِينَ لَهُمْ .

فَلَمَّا عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِهَذَا رَاخُوا يَتَشَاوَرُونَ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ أَنْ يَكْتُبُوا إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ لِيَمْدَهُمْ بِالرُّجَالِ أَوْ يَأْمُرَهُمْ فَيَعُودُوا إِلَى الْمَدِينَةِ . . وَلَكِنَّ
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ غَلَبَتْ عَلَيْهِ حِمِيَّةُ الْإِيمَانِ فَقَامَ يُشَجِّعُ الْمُسْلِمِينَ
وَيَقُولُ لَهُمْ :

« يَا قَوْمُ ، إِنَّ التِّي تَكْرَهُونَهَا لَهِيَ الشَّهَادَةُ الَّتِي خَرَجْتُمْ
تَطْلُبُونَهَا ، وَاللَّهُ مَا كُنَّا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِكَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَا بِكَثْرَةِ سِلَاحٍ
وَلَا بِكَثْرَةِ خِيُولٍ ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ . .
انْطَلِقُوا فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْنَا يَوْمَ بَدْرٍ مَا مَعَنَا إِلَّا فَرَسَانِ ، وَيَوْمَ أُحُدٍ مَا
مَعَنَا إِلَّا فَرَسٌ وَاحِدٌ . . انْطَلِقُوا فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ . . إِمَّا
ظُهُورٌ عَلَيْهِمْ ، فَذَلِكَ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَيْسَ لَوَعْدِ اللَّهِ
خُلْفٌ ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ ، فَنَلْحَقُ بِالْإِخْوَانِ وَنُرَافِقُهُمْ فِي الْجَنَّةِ . وَرَدَّدَ
الْمُسْلِمُونَ . . حَقًّا . . حَقًّا إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ فِي بَدْرٍ بِالْكَثْرَةِ . . وَسَارَ
الْمُسْلِمُونَ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ حَتَّى وَجَدُوا جُمُوعًا مُحْتَشِدَةً عِنْدَ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا
« مَشَارِفُ » وَأَخَذَتْ فَيَالِقُ الْعَدُوَّ تَذْنُو مِنْهُمْ فَانْحَازَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى





فانحدر إليهم الروم كالسيل المتدفق



فصرت يمينه فقطعت فأخذ اللواء بيساره

قَرْيَةٍ « مُؤْتَةً » لِيَتَحَصَّنُوا بِهَا . . فانحدر إليهم الرُّومُ كالسَّيْلِ
المتدفِّقِ وأقبلوا عليهم بِخَيْلِهِمْ وَرِكَابِهِمْ وَمَظَاهِرِ الْأَبْهَةِ وَالْغِنَى
وَالْقُوَّةِ مِمَّا أَذْهَلَ الْمُسْلِمِينَ .

قَسَمَ الْمُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ إِلَى مَيْمَنَةٍ وَمَيْسَرَةٍ لِتَحُولَ دُونَ التِّفَافِ
الْعَدُوِّ بِهِمْ وَالتَّحَمَّ الْجَيْشَانِ وَحَمَى الْقِتَالَ .

وَقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَقَاتَلَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى تَفْجَرَ وَجْهُهُ وَتَمَزَّقَتْ أَوْصَالُهُ بِرِمَاحِ
الْقَوْمِ . . فَلَمَّا قُتِلَ زَيْدٌ أَخَذَ الرَّايَةَ « جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ » . .
فَرَّاحَ يُقَاتِلُ بِهَا مُسْتَمِيتًا حَتَّى ازْدَحَمَ عَلَيْهِ الْأَعْدَاءُ وَأَجْهَدُوهُ فَنَزَلَ
مِنْ عَلَى فَرَسِهِ ثُمَّ انْدَفَعَ يُقَاتِلُ الْقَوْمَ رَاجِلًا ^(١) وَاللِّوَاءُ بِيَمِينِهِ
فَضْرِبَتْ يَمِينُهُ فَقُطِعَتْ فَأَخَذَ اللَّوَاءَ بِيَسَارِهِ ، فَضْرِبَتْ يَسَارُهُ
فَقُطِعَتْ ، فَاخْتَضَنَ اللَّوَاءَ بِعَضْدَيْهِ ^(٢) حَتَّى قُتِلَ ، فَوُجِدَ بِهِ نَحْوُ
تِسْعِينَ طَعْنَةً ، فَلَمَّا قُتِلَ جَعْفَرُ أَخَذَ اللَّوَاءَ « عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ » . .
وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ أَعْنَفَ مَعْرَكَةٍ قَاتَلَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ حَتَّى نَسُوا
أَنْفُسَهُمْ وَشُغِلُوا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ
لَمَّا نَزَلَ مِنْ عَلَى فَرَسِهِ أَتَاهُ ابْنُ عَمِّ لَهُ بِقِطْعَةٍ لَحْمٍ وَقَالَ لَهُ : شُدَّ
بِهَذَا صُلْبُكَ ، فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ فَقَضَمَ مِنْهُ قَضْمَةً ثُمَّ سَمِعَ

(٢) كَتَفَيْهِ .

(١) عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الْأَرْضِ .

صوت القتالِ فألقى باللحمِ من يدهِ وأخذ سيفه ثم تقدّم فقاتل حتى قُتل .

واتَّفَقَ المسلمونَ على تَوَلِيَةِ خالِدِ بنِ الوَلِيدِ الرَّايَةَ بعدَ مَقْتَلِ بنِ رَوَاحَةَ فلَمَّا أَخَذَ الرَّايَةَ دَاوَرَ العَدُوَّ وحاوَرَهُ حتى أَتَى المساءُ . . . فانتَحَى جانِباً وانتَحَى عنه المُشركونَ .

ولَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ فَكَّرَ خالِدُ بنُ الوَلِيدِ في خُدْعَةٍ فَبَدَّلَ مَوَاقِفَ الجَيْشِ فنَقَلَ المِئْمَنَةَ إلى المِيسِرَةِ ونَقَلَ المِيسِرَةَ إلى المِئْمَنَةِ ، وجعلَ السَّاقَةَ في مَوْضِعٍ وجعلَ المُقَدِّمَةَ في مَوْضِعِ السَّاقَةِ ، ورصدَ من خَلْفِ الجَيْشِ طائِفَةٌ يُشِيرُونَ العُبَارَ ، ويُحْدِثُونَ أَصْوَاطًا كَثِيرَةً وكأنَّها جاءَهُم المَدَدُ من رَسولِ اللَّهِ . . . فلَمَّا التَقَى الفَرِيقَانِ في الصَّبَاحِ ، رَأَى كُلُّ فَرِيقٍ من العَدُوِّ أَمَامَهُ وُجُوهًا غَيْرَ الَّتِي رَأَاهَا بِالْأَمْسِ ، وَرَايَاتٍ غَيْرَ الَّتِي رَأَاهَا ، فَظَنُّوا أَنَّ المُسلمينَ قَدْ جَاءَ إِلَيْهِمُ المَدَدُ ، فَخَافُوا من لِقَاءِ المُسلمينَ وَكَانَ القِتَالُ قَدْ أَجْهَدَهُمُ .

ونَجَحَتْ حِيلَةُ خالِدِ بنِ الوَلِيدِ في خِدَاعِ القَوْمِ وَصَدَّقَ رَسولُ اللَّهِ حينَ قالَ : « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » . . . وَأَخَذَ خالِدٌ يَتَرَجَّعُ بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ . . . فَظَنَّ الرُّومُ أَنَّهُ يَريدُ أَنْ يَسْتَدِرَّجَهُمُ إلى الصَّحراءِ لِيَنْقَضَّ عَلَيْهِمُ فَلَمْ يَتَّبِعُوهُ . . . وَظَلَّ خالِدٌ يُناوِشُ العَدُوَّ تَارَةً وَيَنْسَحِبُ تَارَةً وَهَكَذَا حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يَرْتَدَّ إلى الْوَرَاءِ دُونَ أَنْ يَتَّبِعَهُ العَدُوُّ



وأخذ خالد يتراجع بمهارة فائقة



فأمر رسول الله أن يأخذوا الصبيان فيحملوهم على الركائب

فَأَفْلَتَ مِنْهُ وَهَذَا هُوَ «الْإِرْتِدَادُ الْمَأْمُونُ»^(١) الَّذِي هُوَ أَصْعَبُ مِنَ
النَّصْرِ وَلَا يَنْجَحُ فِيهِ إِلَّا قَائِدٌ ذَكِيٌّ بَصِيرٌ .

وَهَكَذَا أُنْقَذَ خَالِدُ الْجِيْشِ وَيَكْفِي أَنَّهُ عَادَ دُونَ أَنْ يَفْقِدَ سِوَى
أَرْبَعَةِ عَشَرَ رَجُلًا .

وَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَهُ . . وَأَخْبَرَ الْمُسْلِمِينَ
فِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ وَقَعُ الْخَبَرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَدِيدًا وَخَرَجَ صَبِيَّانُ
الْمُسْلِمِينَ جَرِيًّا لِاسْتِقْبَالِ الْجِيْشِ الْعَائِدِ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَأْخُذُوا
الصَّبِيَّانَ فَيَحْمِلُوهُمَا عَلَى الرِّكَائِبِ وَأَنْ يُعْطَوْهُ ابْنُ جَعْفَرٍ الَّذِي يَجْرِي
لَهْفَانٌ لِلِقَاءِ وَالِدِهِ الَّذِي قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ .

وَرَأَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطَيَّبُ خَاطِرَ الصَّبِيِّ وَيَمْسَحُ عَلَى
رَأْسِهِ حَتَّى هَدَأَ وَعِنْدَمَا قَالَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ لِلْجِيْشِ الْعَائِدِ «يَا فُرَارُ»
. . فَرَرْتُمْ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ « قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْسُوا بِالْفُرَارِ
وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .



(١) فِي مَوْقِعَةِ « دَنْكِرْكَ » افْتَخَرَ الْإِنْجِلِيزُ بِأَنَّهُمْ اسْتَطَاعُوا الْإِرْتِدَادَ أَمَامَ جِيُوشِ الْأَلْمَانِ فِي
الْحَرْبِ الْعَالَمِيَةِ الْآخِرَةِ . . حَتَّى كَانُوا يَسْمُونَهَا « بِالْهَزِيمَةِ الْمُنْتَصِرَةِ » .

الفتحُ الميّنُ (١)

٢٠ رمضان سنة ٨ هـ

رغم انتصار الإسلام وظهوره في الجزيرة العربية فإن بقاء مكة على شركها كان العقبة أمام إتمام هذا النجاح وانتشاره .

ثمّ كان صلح الحُدَيْبِيَّة بين رسول الله وقريش والذي جاء فيه أنه من أحبّ أن يحالف محمداً فليُحالفه ، ومن أراد أن يحالف قريشاً فليحالفها ، فحالت بنو بكر قريشاً وحالت خزاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقوت هذه النديّة ظهر المسلمين .

ثمّ كان دخول الأبطال المغاوير من الكفار في الإسلام كخالد بن الوليد وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة سبباً في إضعاف أعداء الإسلام وزيادة قوة المسلمين

ثمّ كانت عمرة القضاء (٢) التي هزت مكة رغماً عنها نصراً آخر، فقد أوشك أهلها أن يهتفوا مع المسلمين عندما كانوا يرفعون

(١) أي الظاهر على كل فتح .

(٢) سُميت كذلك لأن المسلمين مُنعوا من العمرة قبل عام ثم عادوا لأدائها قضاء .



أيديهم مُهللين^(١) مكبرين^(٢) ملين^(٣) عند طوافهم بالبيت .

« ولا أحد ينكر أن نشأة جيل جديد سمع بالإسلام منذ المهد ونعومة الأظافر فلم تتعمق فيه عبادة الأصنام قد أحسَّ بالتقصير والتخاذل^(٤) » ، فالدين الذي نبغ في مكة اعتنقه أكثر بلدان العرب إلا مكة . ومحمد القرشي أصبح حظيًا^(٥) عند أكثر العرب ولكن القرشيين يعادونه . ياللعار !! كل ذلك جعل مكة تترنح وأصبحت على وشك السقوط والاستسلام .

نقض العهد :

وبينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا في المسجد إذ جاء عمرو بن سالم الخزاعي مفزوعًا مستنجدًا وأخبره أن قريشًا وحليفاتها قبيلة بنى بكر قد اعتدت على قبيلة خزاعة وقتلت منهم رجالاً ، وعندما فرت قبيلة خزاعة إلى الحرم تابعوهم وراحوا يقتلونهم تقتيلاً وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على الظلم .

(١) التهليل : قول لا اله الا الله .

(٢) التكبير : قول الله أكبر .

(٣) قول لبيك اللهم لبيك .

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي الجزء الأول د . أحمد شلبي .

(٥) حظيًا : صاحب منزلة عالية .



جاء عمرو بن سالم الخزاعي مفزوعاً مستنجداً

ثم أخذ ينشد أبياتاً من الشعر يستنصر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ياربِّ إنِّي ناشدُ محمداً . . . حلفَ أبينا وأبيه الأتْلداً (١)
إن قريشاً أخلفوك الموعداً . . . ونقضوا ميثاقك المؤكداً
هم يئثوننا بالوتير هجداً . . . وقتلونا رگعا وسجداً (٢)
فانصر - هداك الله - نصرأ أبداً (٣) . . . وادعُ عباد الله يأتوا مدداً
فهب رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً وقال :

«نصرت يا عمرو بن سالم» .

وبداً سيد الخلق يُعدُّ العدة لفتح مكة .

وأحست قريش - بعد فوات الأوان - خطأها ، فخرج أبو
سفیان إلى المدينة ليُصلح ما أفسده قومه ، وعندما بلغ المدينة اتجه
إلى بيت ابنته أم حبيبة زوج رسول الله ، فلما هم أن يجلسا على
فراش رسول الله طوته عنه أم حبيبة فقال لها مندهشاً :

- يابنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟

ف قالت له على الفور :



(٢) غدرا ونحن نصلي .

(١) القديم العهد .

(٣) نصرا عزيزا .



فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليصلح ما أفسد قومه

- بل هو فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن
تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فصدم أبو سفيان وقال آسفاً : « والله لقد أصابك بعدى يابنية
شر »

ثم خرج مذهولاً حتى دخل على رسول الله في المسجد فكلّمه
فلم يردّ عليه ، فكانت صدمة أسوأ من الأولى فخرج مضطّعب
النفيس إلى أبي بكر فاعتذر إليه في لطف . . فذهب إلى عمر . .
فأغلظ له القول فاتجه يائساً إلى عليّ بن أبي طالب يرجوه فقال له :
يا عليّ إنك أمسّ القوم بي رحماً ، وقد جئت في حاجة فلا أرجع
كما جئت خائباً فاشفع لي . . فقال له عليّ :

« ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله على أمر ما
نستطيع أن نكلّمه فيه » ثم عاد أبو سفيان إلى المسجد ونادى « أيّها
الناس إني قد أجزت بين الناس » ثم ركب بعيره وانطلق راجعاً إلى
مكة يجرّ أذيال الحية والندم .

حادث مستغرب : (١)

وبينما كان رسول الله يعدّ العدة لغزو مكة وقد ناشد المسلمين
بالسرّية والكتمان حتى يباغت^(٢) قريشاً فإذا بحاطب بن أبي

(٢) يفاجيء .

(١) غريب عجيب .

بِلْتَعَةٍ يَكْتُبُ خُطَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ
ثُمَّ اسْتَأْجَرَ امْرَأَةً وَأَمَرَهَا أَنْ تُوَصِّلَهُ إِلَى قُرَيْشٍ وَتَحَايِلَتِ الْمَرْأَةُ حَتَّى
خَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ مُتَّجِهَةً إِلَى مَكَّةَ . . . فَأَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِمَا صَنَعَ
حَاطِبٌ ، فَأَرْسَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَرَاءَهَا . .
فَادْرَكَاهَا فِي الطَّرِيقِ فَأَنْكَرَتْ ثُمَّ هَدَّداها فَأَخْرَجَتِ الْخُطَابَ مِنْ
ضَفَائِرِهَا . . وَعَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَسَلَّمَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ . . فدعا
رَسُولُ اللَّهِ « حَاطِبًا » وَأَطْلَعَهُ عَلَى الْخُطَابِ ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ »

فَأُخْرِجَ حَاطِبٌ وَظَنَّ أَنَّهُ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ إِلَّا أَنْ يَصْدُقَ رَسُولُ
اللَّهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ ! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَكَاؤْمِنٌ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ مَا غَيَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ وَلَكِنِّي لَيْسَ لِي عَائِلَةٌ احْتَمَى فِيهَا وَلِي فِي
مَكَّةَ وَلَدٌ وَأَهْلٌ فَأَرَدْتُ أَنْ أُجَامَلَ قُرَيْشًا فَيَحْمُونَ قَرَابَتِي . .
فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ وَقَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ فِيمَا أَخْبَرَكُمْ
بِهِ . . وَتَذَكَّرَ رَسُولُ اللَّهِ تَارِيخَ الرَّجُلِ فِي الْجِهَادِ فَرَغِبَ فِي الْعَفْوِ
عَنْهُ . وَلَكِنْ عَمَرَ بْنَ الْخُطَابِ غَضِبَ وَقَالَ لِحَاطِبٍ « قَاتَلَكَ اللَّهُ ! »
تَرَى رَسُولَ اللَّهِ يَكْتُمُ أَمْرَهُ فَتَكْتُبُ إِلَى قُرَيْشٍ ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي
أَضْرِبُ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ .

فَتَبَسَّمَ الرَّحْمَةُ الْمَهْدَاةُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ :





ثم استأجر امرأة وأمرها أن توصل الخطاب إلى قريش

وما يدريك يا عمر ، لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدرٍ فقال لهم :
« اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١) .

اجتماع الأطفال :

اجتمع أطفال المدينة بعد صلاة المغرب في المسجد وراحوا
يتحدثون قال قائل منهم :

— إنَّ حاطباً بن أبى بلتعة قد خرج عن الصواب في هذا
العمل . .

فردَّت صبيّة لم تتجاوز الحادية عشرة قائلة . .

— ما كان له أن يتودّد إلى المشركين الذين تبجّحوا بالكفر وأذوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

وقال طفل ثانٍ :

— إن رسول الله عرف أنَّ حاطباً لم يكذب وعلم أنَّه خائفٌ على
ابنه وأهله إن هُزِمَ المسلمون أن ينتقموا من ولده خصوصاً وأن
حاطباً ليس له أهلٌ ولا عشيرٌ تحميه . وهنا ثارَ الطفلُ الأولُ وقال :
— إن المشركين لم يرحموا في عداوتهم للإسلام رحماً ولا أهلاً ولا

(١) كان حاطب بن أبى بلتعة قد أبلى بلاء حسناً في غزوة بدر.



اجتمع أطفال المدينة بعد صلاة المغرب في المسجد

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَحْرِصَ عَلَى وُدِّهِمْ وَقَدْ خَاصَمْنَاهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
وعندئذٍ جاءَ أَحَدُ الْأَطْفَالِ مِثْلًا كَأَنَّهُ يَحْمِلُ خَبْرًا مِثْلًا .
وقال :

- اسمعوا . . لقد نزلَ الوحيُّ على رسولِ الله صلى الله عليه
وسلمَ بآياتٍ تحسمُ موقفَ المسلمينَ من الكفارِ فقال تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ
إِلَيْهِمُ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ » (١) .

إسلامُ أبي سُفْيَانَ :

خرجَ رسولُ الله في نحوِ عشرةِ آلافٍ من المهاجرينَ والأنصارِ
وبعضِ القبائلِ العربيَّةِ سعيًا إلى مكةَ وكانَ يدعُو ربهُ :
« اللَّهُمَّ خُذِ الْعِيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ ، حَتَّى نَبْغَتْهَا » « أَيْ
نَفَاجَتْهَا فِي بِلَادِهَا » .

كانَ رسولُ الله يدعُو بذلكَ حتى لا تستعدَّ قريشٌ للحربِ
فيدخلَ مكةَ دونَ أن يسفِكَ الدماءَ ، فيفتحَ البلدَ الحرامَ ويجعله كما
أرادَ اللهُ مثابةً (٢) وأمنًا ويهدمَ الأوثانَ وينشرَ دينَ الله .
فلما كانَ رسولُ الله بهذا الجيشِ العريضِ على مشارفِ مكةَ لقيهُ
العباسُ بنُ عبدِالمطلبِ مهاجرًا بعياله إلى المدينة . . فأرسلَ

(٢) مثابة : ثوبًا .

(١) سورة الممتحنة : آية ١ .

العباسُ بعياله إلى المدينة ورجع مع رسول الله إلى مكة . ثم أمر رسول الله الجيش أن يستريح وأن يوقدوا النيران جميعاً حيث نزلوا فأوقدوا عشرة آلاف نار . . فكان المشهدُ مروءةً للناظرين . . فخشى العباسُ على أهل مكة من هذا الحشد الكبير فركب بغلة رسول الله وخرج يبحث عن حطّاب أو صاحب لبن أو أى إنسان يرسله إلى مكة ليبلغ أهلها أن يسارعوا ويستأمنوا^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل عليهم غنوة^(٢) .

وبينما كان يسير على بغلة رسول الله وصل إلى مسامعه صوت أبو سفيان يقول : ما رأيتُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً !

فإذا بصوت بديل بن ورقاء يقول :

- خُزاعة أذلُّ وأقلُّ أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وعندئذ دخل عليهم العباس وقال :

ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم واصباح

قريش والله ! لقد خرج لكم فى قوة لا تقهر !

فقال أبو سفيان ملهوفاً :

﴿ فما الحيلة ، فذاك أبى وأمى ﴾ ؟؟

(١) يطلبون الأمان منه .

(٢) أى بالقوة .





ثم أمر رسول الله الجيش أن يستريح وأن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف شعلة نار

فقال العباس :

« وَاللَّهِ لَئِنْ ظَفَرَ بِكَ رَسُولُ اللَّهِ لِيُضْرِبَنَّ عُنُقَكَ ! فَارْكَبْ مَعِيَ عَلَى هَذِهِ الْبَغْلَةِ حَتَّى آتِيَ بِكَ رَسُولَ اللَّهِ فَأَسْتَأْمِنَهُ لَكَ » .

وركب أبو سفيان خلف العباس ، وذهبَا إلى حيثُ كان رسول الله ، فكانَا كلَّما مرَّأ بنارٍ من نيرانِ المسلمين سمعَا صوتًا ينادي : مَنْ هَذَا ؟

وحينما يرون بغلة رسول الله ، وعليها العباس يقولون : عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته ، ويُفسِحُونَ الطريقَ فلما وصلا إلى نارِ عمر بن الخطاب ورأى عمرُ أبا سفيان ، قام إليه يصيحُ :

— أبو سفيان عدوُّ الله ، الحمدُ لله الذي مكَّنِي منك بغيرِ عقدٍ^(١) ولا عهدٍ . وراح العباسُ يستحيُّ^(٢) البغلةَ على الجرى . . .
كانَ كلُّ منهما يحاولُ أن يصلَ إلى رسولِ الله قبلَ الآخرِ ووصلَ العباسُ إلى حيثُ كانَ الرسولُ ، ودخلَ عليه ، ودخلَ عمرُ خلفه ، وقالَ عمرُ :

(١) بلا مسؤولية أو محاسبة على قتلك .

(٢) يدفعها .



وركب أبو سفيان خلف العباس

- يارسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني أضرب عنقه .
فقال العباس :

- يارسول الله إني قد أجرتك .

ورأى رسول الله أن يصرف العباس وأبا سفيان . . . ليعطى فرصة كافية لأبي سفيان كي يبيت يتفكر قبل أن يختار حتى يكون اختياره عن ترو وتفكر .
فقال :

- اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به ، ولم ينم أبو سفيان حتى الصباح ، لقد بات يفكر كيف يمكن أن ينتقم منه محمد ؟ وماذا عساه أن يفعله بأهل مكة إن دخل عليهم بغتة ؟

وفي الصباح جاء العباس ومعه أبو سفيان إلى رسول الله وعندهما وقع عليه بصر رسول الله صلى الله وسلم قال معاتباً متودداً :

- ويحك يا أبا سفيان ، ألم يئن « يعنى : ألم يحن » لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

فقال أبو سفيان على الفور :



- بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ ؟
والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إلهٌ غيره ، لأغنى عني شيئاً
بعد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
- وَيْحَكَ يَا أَبَا سَفْيَانَ ! أَلَمْ يَتَن لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ؟
قال : فبأبي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ !
أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .

فقال العباس :

- وَيْحَكَ ! أَسْلِمَ وَاشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ
قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ .

فقال أبو سفيان :

- أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

فقال العباس :

يا رسول الله إنَّ أبا سفيان رجلاً يحبُّ الفخر فاجعلْ له شيئاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- نَعَمْ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ
بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .





قال أبو سفيان: أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله

وتأهب جيش المسلمين لدخول مكة ، وركب رسول الله ناقته
وراح أبو سفيان يصرخ :

- مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ
آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ .

ودخل صلى الله عليه وسلم في كتيبه الخضراء يوم العشرين من
رمضان سنة ثمان للهجرة ، وقد اختبأ الناس في دورهم ، بينما وقف
صبيان مكة فوق الأسطح يرقبون الموقف . . فرأوا رسول الله في
موكب مهيب والمسلمون حوله يهللون ويكبرون بينما رسول الله
يسجد على ظهر ناقته شكراً لله ، فقد رجع مكة منصوراً بعد أن
خرج منها خائفاً يترقب .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الفتح حتى
انتهى إلى الكعبة ، وكبر المسلمون من خلفه ثم طاف سبعة ثم
صلى في مقام إبراهيم ثم انصرف إلى زمزم فشرب وتوضأ والمسلمون
من حوله يتزاحمون على الماء الذي يتساقط منه حتى أن أحد
القرشيين قال متعجباً :

ما رأينا ملكاً أبْلَغَ من هذا ولا سمعنا به !

ثم دعا رسول الله عثمان بن طلحة ففتح له الكعبة فصلى
ركعتين ثم وقف على باب الكعبة وقال :





كتيبة الخضراء

لا إله إلا الله وحده . . صدق وعده . . ونصر عبده . . وهزم
الأحزاب وحده . . ثم خطب خطبة . . ذكر فيها جملة من
الأحكام ثم قال :

« يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية
وتعظمها بالآباء . . . الناس من آدم ، وآدم من تراب » ثم تلا
هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴾ (١) ثم قال : يامعشر قريش ماذا تقولون ؟ وماذا تظنون أني
فاعل بكم ؟ قالوا : خير . . أخ كريم وابن أخ كريم . . قال :
أقول لكم كما قال أخى يوسف : « لا تشرِبْ » (٢) عليكم اليوم ،
يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » (٣) . . اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم اتجه هو وأصحابه إلى الأصنام وراحوا يكسرونها قطعاً قطعاً
وهم يرددون :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ .

ولما تطهرت الكعبة من الأصنام ، أمر رسول الله بلالاً أن يعتلي
الكعبة ويؤذن لأول مرة . . وكان بلال يتميز بصوت جميل
وحنون فراح يردد :

(٣) يوسف (٩٢) .

(٢) لالوم .

(١) سورة الحجرات ١٣ .



قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا



بلال يؤذن الله أكبر الله أكبر

الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! . أشهد أن لا إله إلا
الله . . أشهد أن لا إله إلا الله . . أشهد أن محمداً رسول الله . .
أشهد أن محمداً رسول الله . . حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ . . حَيَّ عَلَى
الصَّلَاةِ . . حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ . . حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ . . الله أكبر . .
الله أكبر . . لا إله إلا الله .

واقشعرت أبدانُ الناسِ ولانت قلوبُهم وراحوا يتابعون المسلمين
في صلاتهم خلفَ رسولِ الله . . أمّا صبيانُ مكة فقد راحوا
يتبارون^(١) في أداء الأذانِ بنفسِ الطريقةِ التي قالها بلالُ .
ومنذُ ذلك الوقتِ وصوتُ الأذانِ يُجْلجلُ في الكعبةِ في كلِّ يومٍ
خمسَ مرَّاتٍ .

(١) يتنافسون .

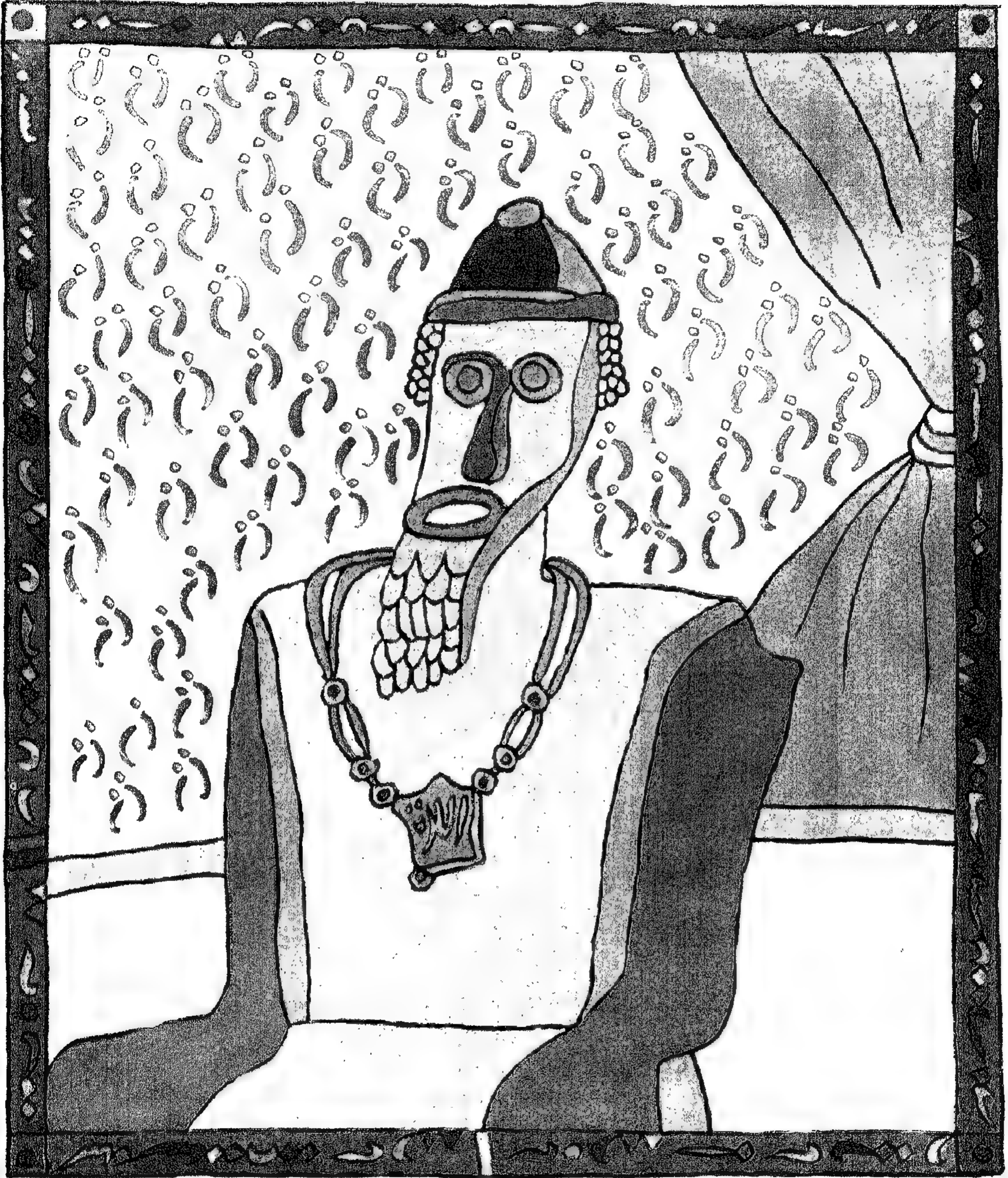
غزوة حنين

٦ شوال سنة ٨ هـ

عندما كان رسول الله ﷺ يحطم الأصنام هو وأصحابه وكان عددها نحو ثلاثمائة وستين صنماً ، اغتازت قبيلتا هوازن التي كانت خيامها في نجد ، وثقيف التي كانت تسكن الطائف ورفضت الدخول في الإسلام وخشيت أن تدور عليها الدائرة ويهدم محمد ﷺ صنمها الذي تعبده ، وكان يدعى « اللات » وكان أكبر أصنام العرب بعد « هبل » فتشاوروا فيما بينهم وقرروا أن يبادروا محمداً قبل أن يبادرهم وأخذوا يستعدون لذلك ويحرضون القبائل حولهم . . فلما أجمعوا أمرهم ولوا عليهم « مالك بن عوف النصري » وكان مالك فتى حديث السن شديد الحمية فقرّر أن يخرج إلى المعركة ومعه النساء والأطفال والأموال ليدفع ذلك من جرأة الرجال وحماسهم . . ولقد حاول أحد شيوخ قومه أن يثنيه عن ذلك . . ولكنه ردّ عليه رداً غليظاً بأنه رجل قد هرم وفقد بصره فليترك أمر القتال للشباب ، وخرج مالك وتابعه قومه على هواه بأهلهم وأموالهم .

وسمع رسول الله ﷺ بهذا التحرك فصمّم على أن يفاجئهم قبل أن





(اللات) أكبر أصنام العرب بعد « هُبل »

يفاجئوه . . فخرج من مكة يوم السبت السادس من شوال في السنة الثامنة للهجرة في اثني عشر ألفاً من الرجال . عشرة آلاف جاء بها إلى مكة ، وألفين من أهلها .

الإعجاب بالنفس :

عندما رأى المسلمون أنهم كثرة في العدد والسلاح وأن قريشا أصبحت معهم أصابهم مرض لعين وهو الإعجاب بالنفس والاطمئنان بالكثرة والسلاح ونسوا أن النصر لا يكون إلا من عند الله العزيز الحكيم ، وأنهم قد انتصروا من قبل لا بكثرة عدد ولا بوفرة سلاح ولكن بقلوب عامرة بحب الله ورسوله والرغبة في النصر أو الشهادة وتواضع لله وفداية و قتال في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض فكان النصر المبين وكان إقبال الناس على الإسلام وكانت الهيبة والمكانة التي أسمع الشرق والغرب ، فماذا حدث ؟

يقول تعالى في سورة التوبة ﴿ ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق ، عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ (١) .

(١) التوبة : ٢٥ .

لقد خرجت هوازُن وثقيفُ إلى وادٍ من أودية تِهامةٍ كثيرِ المضايقي
والشُعابِ . . فجعلَ مالكُ بن عوفَ فريقًا من رجاله على رءوسِ
المضايقي والجبالِ وأمرَ الرُّماةَ أَنْ يَفَاجِئُوا المسلمينَ عندَ دخولِهِم من
الشُعابِ بالنِّبالِ . . فإذا أَذهَلَتْهُمُ المَفاجِئَةُ مالوا عليهم مِيلةً
واحدةً .

أَمَّا رسولُ اللهِ صلى عليه وسلم فقد انشغلَ في تنظيمِ الجيشِ
فعملَ خالدُ بنُ الوليدِ في المقدمةِ ، ووضعَ الألويةَ والرَّايَاتِ في
أهلِهَا من المهاجرينَ والأنصارِ ولاحظَ صلى اللهُ عليه وسلم ما
أصابَ المسلمينَ من عُجْبٍ وخِيَلٍ فأخذَ يردُّ بعضَ الآياتِ
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١) .

« من تواضعَ لله رفعَهُ » حديثٌ شريفٌ

وراحَ يكرِّرُ . . « اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ مِنْ حَوْلِي وَقَوَّتِي إِلَى حَوْلِكَ
وَقَوَّتِكَ » ، ولكنَّ المسلمينَ كانوا قد امتلأوا زهوًا بتنظيمِ الجيشِ
وكثرةِ العددِ وقوةِ السلاحِ . . وعندما دخلوا وادِي حُنَيْنٍ انهالتْ
عليهِمُ السَّهَامُ في الظلامِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ . . فضاقتْ عليهمُ الأرضُ
بِمَا رَحُبَتْ ، وتراجعُوا بغيرِ نظامٍ وداسَ بعضهم على رِقَابِ بعضٍ

(١) لقمان : ١٨ .



خرجت هوازن وثقيف إلى وادٍ من أودية تهامة

وتدافعت الإبل والخيول في غير وعي فلما رأى رسول الله الهلع والتراجع صاح بالناس :

أيُّها الناس ؟ هلُمُّوا إِلَيَّ ! أنا رسول الله ! أنا محمد بن عبد الله . . أنا النبي لا كَذِب . . أنا ابن عبد المطلب .

وكان العباس بن عبد المطلب رجلاً جهير الصوت . . فأمره رسول الله أن ينادى على الأنصار والمهاجرين ليرجعوا .

فجعل العباس يصرخ « يامعشر الأنصار الذين آووا^(٢) ونصروا . . يامعشر المهاجرين الذين بايعوا رسول الله على الشهادة هلُمُّوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كادوا يسمعون الصراخ حتى عادوا يلتفون حول رسول الله » لبيك لبيك .

وراحوا يقاتلون في صمود عجيب وشدَّ بعضهم أزرَ بعض وتماسكوا وفي هذه الأثناء بدأ الصبح يُنير المكان فانكشفت مواقع العدو . . فحملوا عليهم حملة رجل واحد ففترقت جموعه وتقهقرت للخلف وفرَّ مالك بن عوف وفرَّ من ورائه بقية رجاله فتابعهم المسلمون وطاردوهم حتى احتمى مالك بن عوف بأحد حصون الطائف وترك وراءه كل ما ساق من الأهل والأموال . . فغنم المسلمون غنيمة لم تحدث من قبل .

(١) يذكرهم بأنهم سبق أن آووا المهاجرين في المدينة .



وفر مالك بن عوف ومن ورائه بقية رجاله المسلمون وطاردوهم .

وأمر رسول الله بالسَّبايا والأموال فجمعت وسيقت جميعها إلى وادي « الجُعْرَانَةِ » لأنه كان يتمنى أن يستسلم القوم ويُسلموا فيعيد إليهم أموالهم ونساءهم وأطفالهم . .

ولكن « مالك بن عوفٍ » فرَّ بمن نجا من رجاله ومن رجال ثقيف إلى الطائف وتحصنوا في حصونهم وغلقوا الأبواب .

ورغم أن المسلمين كانوا خبراء في قتال الحصون إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمل أن يستسلموا دون قتال ويدخلوا دين الله . . وظل رسول الله محاصراً بضعا وعشرين ليلة .

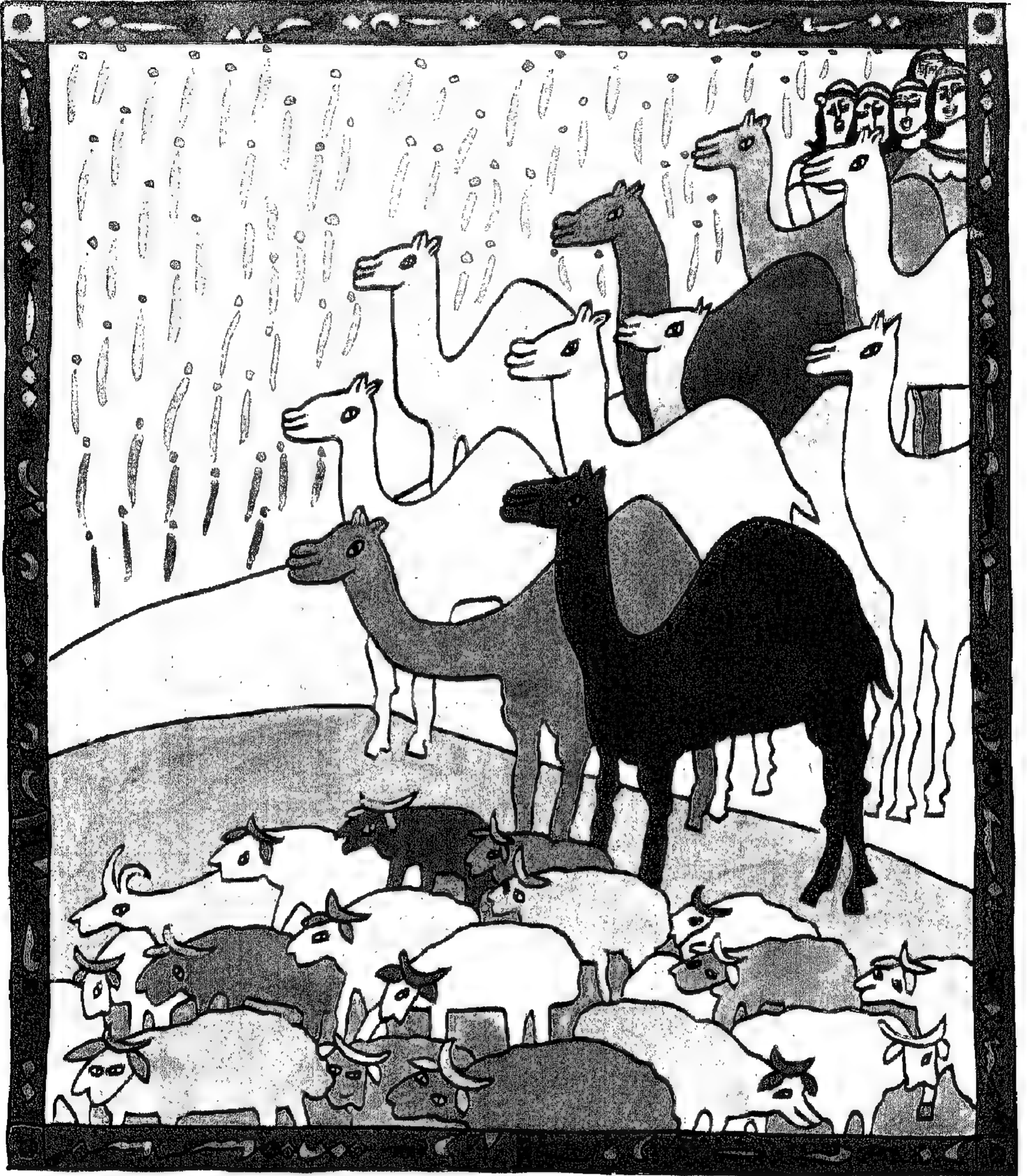
ثم أمر رسول الله أن يُنادى في عبيد ثقيف « من خرج إلينا فهو حرٌّ » فلما سمع العبيد ذلك تسللوا واحداً بعد الآخر فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد علم منهم أن ثقيفا قد تزودت في حصونها بزايد يكفيها سنة كاملة ، فرأى رسول الله الأفادة في الحصار فآثر رسول الله أن يرحل بالمسلمين وفي الطريق قالوا لرسول الله :

- يارسول الله ادعُ على ثقيف أهل الطائف .

فقال - اللهم اهد ثقيفا ، وأت بهم مسلمين . .

وعاد رسول الله إلى الجُعْرَانَةِ حيث حُبست غنائم حنين ، وكانت أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الغنم وأربعة آلاف





غنائم حنين وكانت اربعة وعشرين ألفا من الابل وأربعين ألفا من الغنم

أَوْقِيَّةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَسِتَّةَ آلَافٍ مِنَ النَّسَاءِ وَالْبَنِينَ . . فَقَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ
الْأَمْوَالَ وَأَجَزَلَ الْعَطَاءَ لَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ حَدِيثًا بَعْدَ دُخُولِ
الْمُسْلِمِينَ مَكَّةَ وَلِتَتَأَلَّفَ قُلُوبُهُمْ وَيُذْهِبَ الضَّغَائِنَ مِنْ صُدُورِهِمْ
وَيَزِيدَ مِنْ وَلَائِهِمْ وَانْشَرَّاحِهِمْ لِلْإِسْلَامِ . . حَتَّى أَنَّ الْأَنْصَارَ تَأَثَّرُوا
وَقَالَ بَعْضُهُمْ « عِنْدَمَا عَادَ إِلَى أَهْلِهِ وَلَقِيَ قَوْمَهُ نَسِينَا » .

فَجَمَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ وَطَيَّبَ خَاطِرَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ :

« أَتَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ أَهْلُ مَكَّةَ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ
وَيَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى مَدِينَتِكُمْ ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا
الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ مِنَ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا (١) وَسَلَكَتِ
الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتِ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ
الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ » .

فَبَكَوْا جَمِيعُهُمْ . . وَقَالُوا :

« رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحِطًّا » .

دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ :

لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْغَنَائِمِ حَضَرَ وَفْدٌ مِنْ قَبِيلَةِ هَوَازِنَ
وَأَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ وَرَجَعُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي رَدِّ أَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ . .
فَخَيَّرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ الْأَهْلِ وَالْمَالِ . . فَاخْتَارُوا أَبْنَاءَهُمْ فَقَالَ

(١) الشَّعْبُ : الطَّرِيقُ .



وترك في مكة معاذ بن جبل ليفقه الناس في الدين

رسولُ الله لأصحابه : لقد تنازلتُ عن حقي وحقِّ بني عبدِ المطلبِ
في المالِ السبئي وأنَّ هؤلاءِ القومَ جاءوا مسلمينَ فمن كانَ عندهُ من
سبيهم شيءٌ فليُكرِّم أخاهُ المسلمَ وله بكلِّ إنسانٍ ستُّ فرائضٍ من
أولِ ما يفى الله علينا (١) .

فردُّوا عليهم نساءهم وأبناءهم .

وسأل رسولُ الله وفدَّ هوازنَ عن مالكِ بنِ عوفٍ ، فعلمَ أنَّه لا
يزالُ بالطائفِ معَ ثقيفٍ ، فطلبَ منهم أنْ يبلغوه أنَّه إن أتاهُ مسلماً
ردَّ عليه أهلهُ ومالهَ ، وأعطاهُ مائةً من الإبلِ ، فلما علمَ مالكُ بوعدِ
رسولِ الله تسلَّلَ من وراءِ ثقيفٍ وأتى رسولَ الله مسلماً ، فأعطاهُ
رسولُ الله ما وعدهُ وجعلهُ أميراً على من أسلمَ من قومِهِ ، فكانَ
يقاتلُ بهم ثقيفاً ويُغيِّرُ على سرحِهِم (٢) حتى ضيقَ عليهم .

وخرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في « الجُعْرَانَةِ » معتمراً
فدخلَ مكةَ وطافَ وسعى وحلقَ ثم رجعَ إلى الجُعْرَانَةِ في ليلتهِ وتركَ
في مكةَ معاذَ بنَ جبلٍ ليُفَقِّهَ الناسَ في الدينِ وعُتَّابَ بنَ أُسيَدٍ وكانَ
فتىً في نحوِ العشرينَ من عمرِهِ يتميِّزُ بالورعِ (٣) والتقوى فأمرَهُ
رسولُ الله على مكةَ أمِّ القرى لورعِهِ وتقواه رَغَمَ حداثةِ سنِّهِ . . ثمَّ
اتَّجَهَ رسولُ الله إلى المدينة المنورة .

(٣) شدة التقوى .

(١) من أول ما نغنمه في الحرب .

(٢) على إبلهم وذرعهم .



« غزوة تبوك » شهر رجب ، السنة التاسعة للهجرة

إعتادَ أطفالُ المدينة أن يجتمعوا في مسجدِ رسولِ الله عقبَ صلاةِ المغربِ حتى صلاةِ العشاءِ ليذكروا أخبارَ الغزواتِ والحكاياتِ المتعلقةِ بها .

- قالَ أحدُ الأطفالِ :

لکم کنت أتمنى أن أشاركَ في حصارِ المشركينَ في الطائفِ حتى أتسللَ وأفتحَ لرسولِ اللهِ الحصونَ المنيعةَ التي اختبأَ فيها مالكُ بنُ عوفٍ ومن معه .

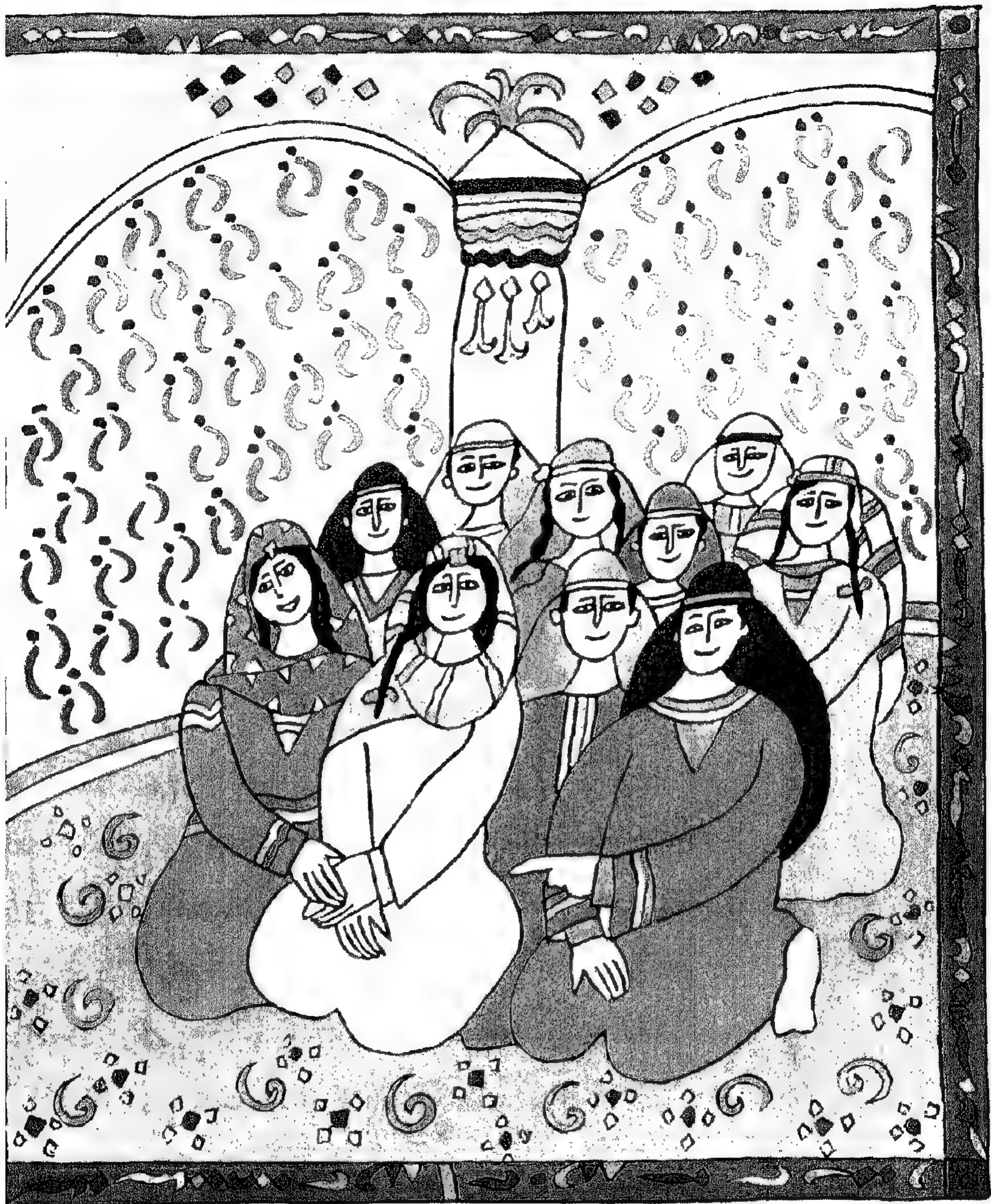
- وردَّ أحدُ الصبيانِ - وكان أكبرَ سنًا - :

- لقد حاولَ بعضُ المسلمينَ الدخولَ في دبابَةٍ^(١) وظلوا يزحفونَ إلى الحصنِ ليخرقوه ، ولكنَّ ثقيفًا ألقت عليهم قطعًا من الحديدِ المحمّاةِ في النارِ . . فاضطّروا للهربِ .

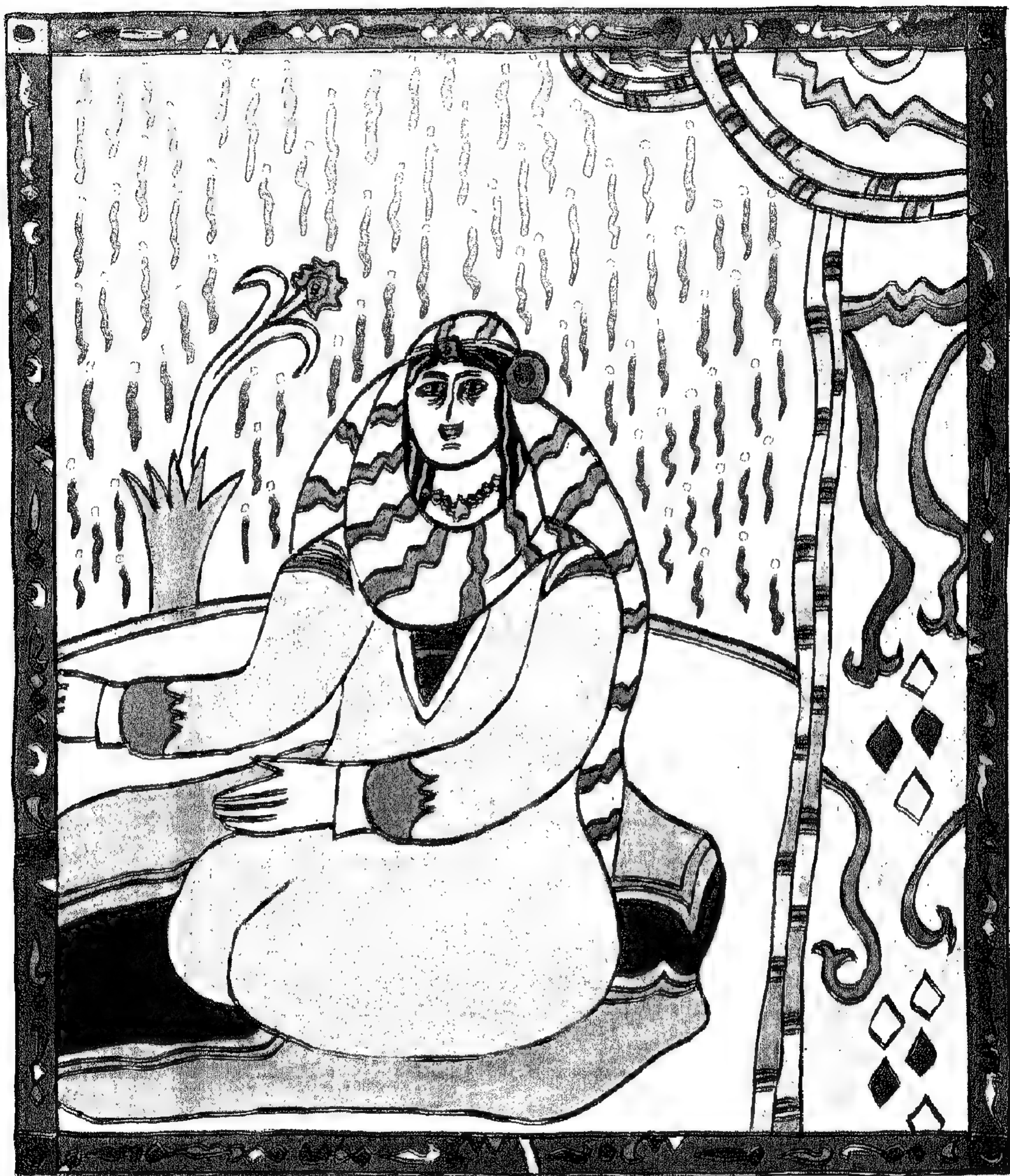
- وقالت فتاةٌ تبلغُ من العمرِ الرابعةَ عشرةَ :

لماذا رفضَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ قطعَ ثمارِ العنبِ من حقولِ المشركينَ في الطائفِ ؟

(١) كانت الدبابة في ذلك الوقت من الخشب يجتمى بها الجنود وهم يحاولون اقتحام الحصون .



اجتمع أطفال المدينة في مسجد الرسول عقب صلاة المغرب .



وبسط لها ردائه صلى الله عليه وسلم وأجلسها

- فقال كبير الصبيان :

لقد أرسلوا إلى رسول الله أن يتركها لله وللرحم ، فنهى
المسلمين عن قطعها صغيرة .

- وعلقت طفلة :

يا لرحمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . . لقد حضرت
الشيء أخت الرسول من الرضاعة أسيرة وقالت للمسلمين :
- أنا أخت صاحبكم .

فتعجبوا من قولها . . فظلت تُقسم أنها أخته .

وعندما أخبروا رسول الله بقولها .

- قال : أحضروها إلي .

فلما رآها . . قال لها : لا أنكركِ . . فمن أنت ؟ !

- قالت : له والدموع في عينيها :

أنا أختك . . بنت حليمة السعدية مرضعتك . .

فقام رسول الله لها وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه وسألها عن

حليمة وزوجها الحارث فأخبرته بموتها . . فدمعت عيناه . .

وقال : أحسنوا ضيافتها وأكرموها وأذن العشاء . . فقاموا جميعاً

للصلاة . . وعقب الصلاة مباشرة نادى مناد في المسجد .

- أيها المسلمون . . إن قيصر الروم يُعدُّ العدة لغزو المسلمين

فاجتمعوا أمركم واستعدوا .



وانطلق الرجال لإعداد أنفسهم واندفع الشباب خارج المسجد . .
وحدثت جلبة^(١) بينما هبّ الأطفال واقفين ينظرون إلى الكبار
ويرقبونهم وبعدهما خرج المصلون من المسجد . .
اجتمع الأطفال مرة أخرى . . وراحوا يتحدثون .
- قال كبيرهم وقد بلغ من العمر الخامسة عشرة :
- ليس غريباً أن يستعدّ قيصر الروم لقتال المسلمين . . هل
تذكرون كلمته عندما أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
رسوله إليه ؟

هل تذكرون ماذا قال قيصر الروم بعد أن ظلّ يسأل ويستفسر
لقد قال لأبي سفيان بالنص : « إن كان ماتقوله حقاً فسيملك
موضع قدمي هاتين ! »
وقال طفل آخر : نعم ومنذ ذلك الحين وهو يتابع أخبار
انتصار الإسلام في الجزيرة العربية .
- وقالت طفلة لا تتجاوز العاشرة :
لا تنسوا غزوة « مؤتة » التي أيقن فيها الرومان أن الجنود
المسلمين قوة لا يُستهان بها . . فأرسلوا العيون واتصلوا ببعض
المنافقين . . ليمدوهم بأخبار رسولنا الكريم .
- وأجاب أكبرهم قائلاً :

(١) ضوضاء .



نعم . . نعم . . ولا يجب أن ننسى أن أبا عامر الراهب لم يُطَقَّ
البقاء في المدينة بعد أن ظهرَ فيها أمرُ رسولِ الله صلى الله عليه
وسلم فذهبَ إلى قيصر ملكِ الرومِ يستنجدُ به . . فوعدهُ قيصرُ
ومَنّاهُ وأعطاهُ إقامةً . . فأرسلَ إلى جماعةٍ من قومه في المدينة من أهلِ
النفاقِ يَعِدُهُمْ بأنه سيحضُرُ ومعه جيشٌ يُقاتِلُ به محمداً .
- وقالتُ الطفلةُ الذكيةُ :

ماذا سيفعلُ رسولُ الله لمُواجهةِ هذا التحدي هل ستركُ الرومانَ
يتغلغلونَ في صحراءِ الجزيرة العربية ثم يحاربُهم ؟ أم سيذهبُ هو
إليهم ؟

وعادَ الأطفالُ إلى منازلهم وراحوا يفكِّرونَ في كلِّ هذه الأمورِ
حتى غلبَهُم النومُ .

كانَ الوقتُ وقتَ حصادٍ وجمعِ ثمارٍ وكانَ القَيْظُ (١) شديداً وكانَ
المسلمونَ قد أجهدَهُم كثرةُ الغزواتِ والسرايا . . كما أنَّ أحبَّ
وقتٍ للراحةِ هو وقتُ جمعِ الثمارِ . . غيرَ أنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه
عليه وسلم - ندبَ (٢) الناسَ للخروجِ وبعثَ إلى مكة وإلى قبائلِ
العربِ يستنفرُهُم (٣) . . ثم خطبَ في الناسِ وهو بالمسجدِ
وحَضَّ على الجهادِ وأمرَ بالصدقةِ ورَغَّبَ الأغنياءَ وحثَّهُم على
الإنفاقِ لتجهيزِ غيرِ القادرينَ من المقاتلينَ .

(١) شدة الحر . (٢) طلب منهم . (٣) يحفزهم للقتال .

مواقف متناقضة

عثمانُ بنُ عفان :

في المحن القاسية يظهر معدن الرجال ، فهذا هو عثمانُ بنُ عفان حين أحسَّ خطر الرومان وعلمَ أنَّ قتال الروم ليس صدامًا مع قبيلة أو قبيلتين بل هو كفاحٌ مع دولةٍ عظمى بسطت سلطانها على عدَّة قاراتٍ وتملكُ من الرجال والعتاد ما لا يُحصى . . فتبرعَ عثمانُ لتجهيز عشرة آلاف مقاتلٍ حتى أنَّ رسولَ الله تعجَّب من كثرة ما أنفق وقال : « اللهم ارض عن عثمان فإنني عنه راضٍ » .

أبو بكر الصديق :

أدرك أبو بكر أنَّ الهزيمة التي أصابت المسلمين في غزوة مؤتة لاتزال عالقة بالأذهان وأنَّ المسلمين يعلمون أنَّ بلاد الروم بعيدة عن عاصمة المسلمين . . مما يجعل مراكز التموين والإمدادات أمرًا صعبًا ومُجهَّدًا . . وفكَّر أبو بكر في طريقة يشجع بها الناس فأحضر جميع ما له أربعة آلاف درهم وقدمها إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم - فقال له الرسول :



- هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟

فقال أبو بكرٍ في إيمانٍ :

- أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَهُ .

عمرُ بنُ الخطَّابِ :

وعندما رأى عمرُ بنُ الخطَّابِ الفقراءَ الذين انصرفوا من عند رسولِ الله بعد أن قالَ لهم « لا أجِدُ ما أحملُكم عليه » فتولَّوا وأَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

تبرَّعَ عمرُ بنصفِ ماله ؟ فقالَ له الرسولُ :

- هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟

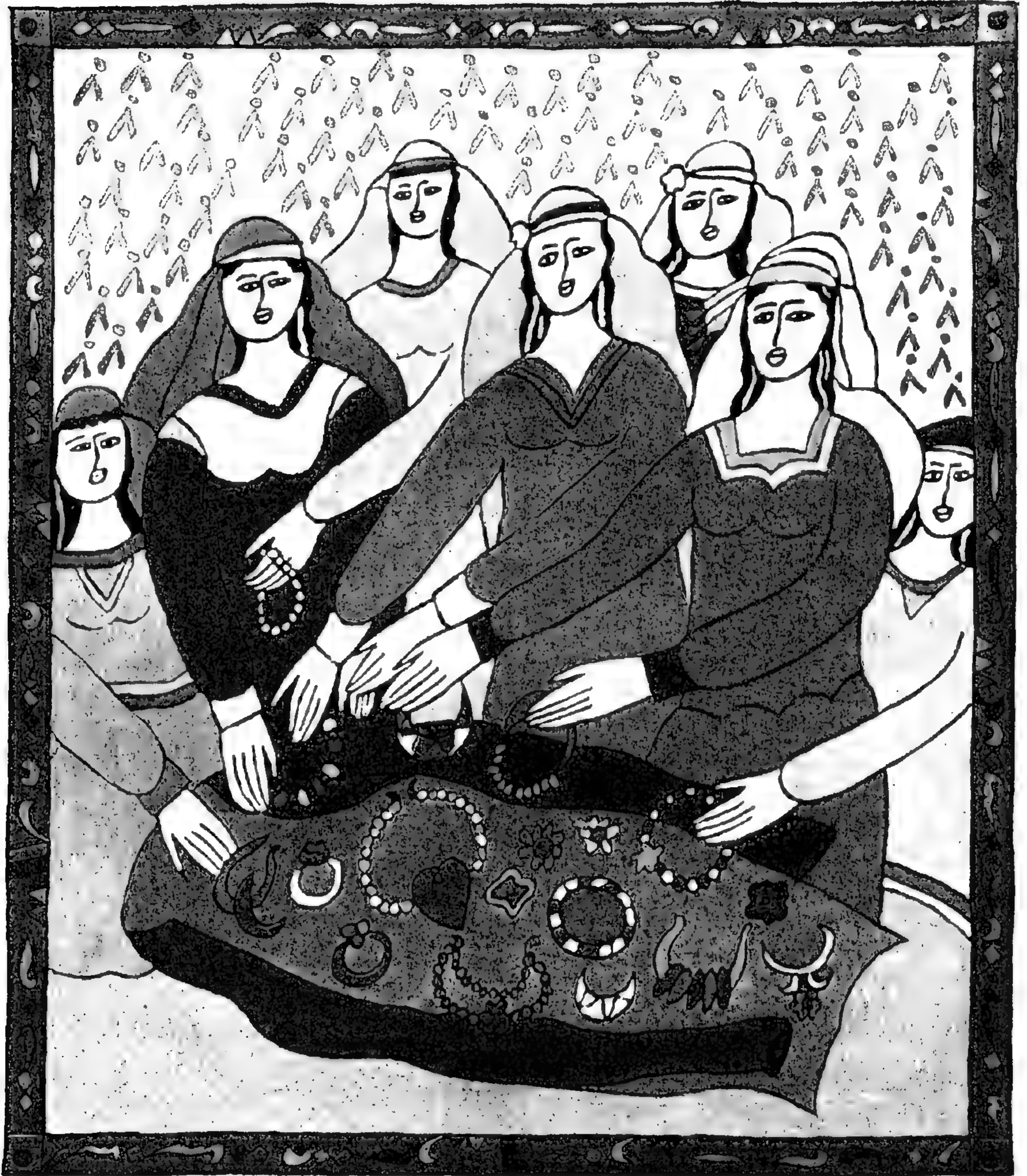
فقالَ عمرُ : النصفَ الثاني .

أما نساءُ المسلمين فرُحْنَ يُلقَيْنَ في ثوبٍ مبسوطٍ أمامَ رسولِ الله كلَّ ما يملكنَ من خواتيم ، وسلاسلٍ وعقودٍ وخلاخيلٍ . . كلُّ ذلك من أجلِ تجهيزِ الجيشِ الذاهِبِ للقاءِ الرومانِ .

موقفُ المنافقين :

انتحلَّ المنافقونَ الأعذارَ عن عدمِ إمكانِهِم الاشتراكَ في هذه الغزوةِ رغمَ أنهم كانوا أصحاباءً وأغنياءً وجعلوا يستأذنونَ رسولَ الله





أما نساء المسلمين فرحن يلقين في الثوب كل ما عليهن من خواتيم وسلاسل وخلاخيل

في القعود فأذن لهم ولكنه أعرض عنهم في نفسه .

ولم يكتف المنافقون بأن قعدوا عن الجهاد في سبيل الله ، بل
راحوا يُثبِّطون الهمم ويقولون ساخرين « أَيْغِزُوا مُحَمَّدٌ » « بنى
الأصفر » مع جَهْدِ الحال ^(١) والحرِّ والبلدِ البعيدِ !!؟
أَيْحَسِبُ مُحَمَّدٌ أَنْ قَتَالَ بنى الأصفر كقتالِ العربِ بعضهم
بعضاً ؟ !!؟

والله لكانَّكم بأصحابِ محمدٍ غداً مُسْلِسِينَ في الحبالِ . . !
انطلق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الصحراءِ متجهاً إلى
الشمالِ ومعه جيشٌ قد « ناهز » ^(٢) الثلاثين ألفاً من الناس ،
وعشرة آلاف فرسٍ ولم يكن الطريقُ سهلاً وإنما كان في زمانٍ عسرةٍ
وشدةٍ وحرٍّ فقاسوا الأمرين . . من بُعدِ المسافةِ وشحِّ المؤونةِ حتى
أنَّ الرجلينِ والثلاثة على بعيرٍ واحدٍ . . وأصابهم العطشُ حتى أنَّ
جعلوا ينحرونَ إبلَهُمْ ليفضُّوا أكراشَها ويشربُوا ماءها . . فكانَ
عسرةٌ في الماءِ وعسرةٌ في النفقةِ وعسرةٌ في المظهرِ .

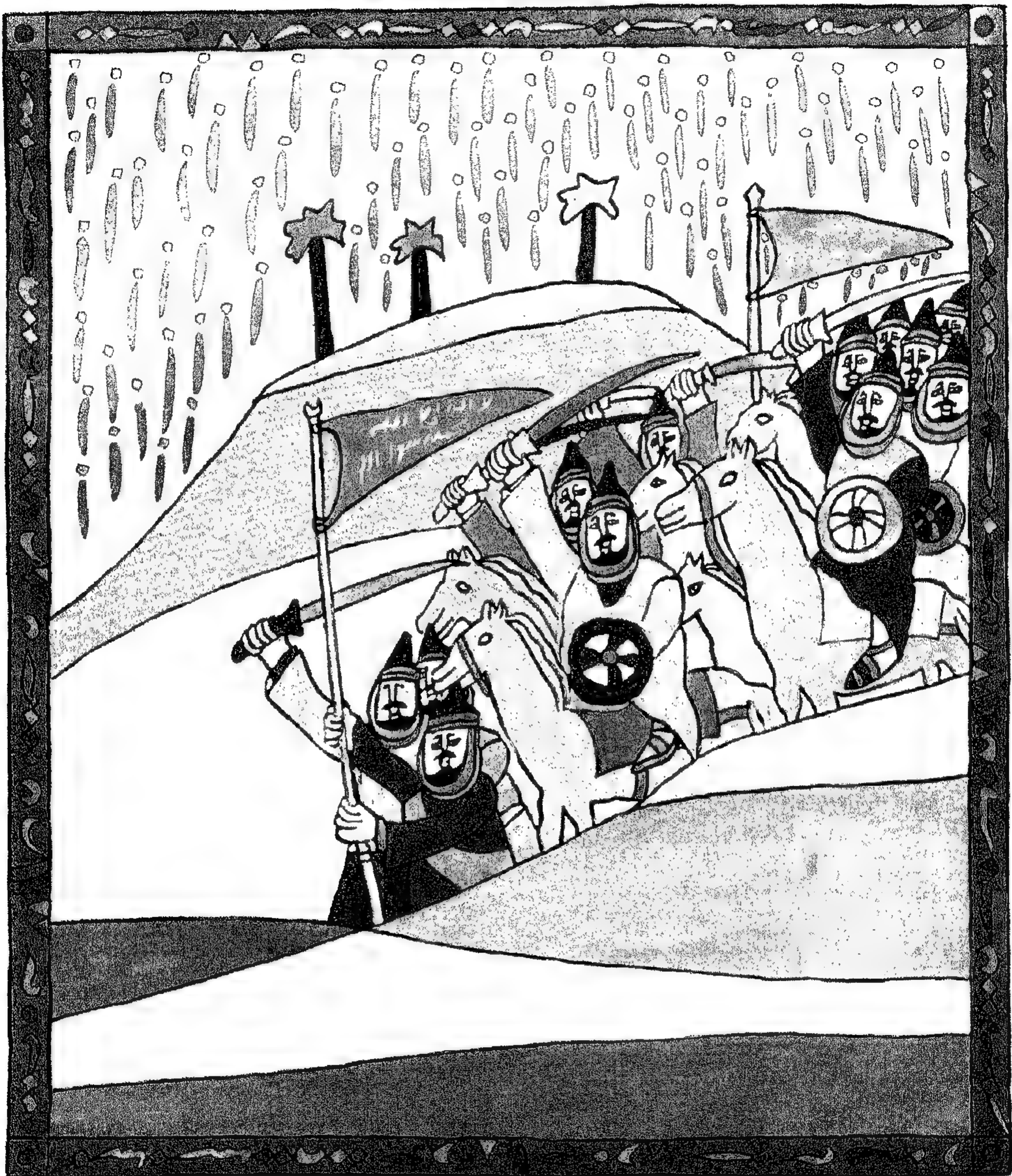
فَنَزَلَ قولُ اللهِ تعالى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ ^(٣) .

(٣) سورة التوبة : ١١٧ .

(٢) قارب .

(١) تعب .



جيش المسلمين يتجه إلى الشمال

واتجه أبو بكر الصديق في حياءٍ شديدٍ إلى رسول الله وقال له :
- ادعُ الله لنا أن ينزل لنا المطر .
- أَوْحِبُّ ذَلِكَ ؟

- نعم .

فرفع صلى الله عليه وسلم يده إلى السماء وراح يدعو وقبل أن
تنزل يداؤه تجمعت السحب وهطل المطر غزيراً فاغتسلوا وشربوا
وجمعوا الماء .

وعندما نظر أبو بكر لاحظ أن المطر والسحب لم تجاوز العسكر
فحمدوا الله كثيراً ووصل صلى الله عليه وسلم تبوك وسار حتى
أدرك حدود الروم فلم يجد أحداً من العدو !! فقد أثر الروم
الانسحاب إلى الداخل ليتحصنوا بحصونهم حين بلغهم قوة هذا
الجيش . . وأقام صلى الله عليه وسلم بتبوك نحو عشرين ليلةً
حتى اطمئن إلى عدم نيّة الرومان في قتاله وانتهاز هذه الفرصة
وأرسل السرايا إلى مَنْ حوله تبوك من نصارى العرب التابعين لدولة
الروم ، فصالح أهلها على أن يعطوا الجزية ^(١) ويدخلوا في أمان
الإسلام وعهده ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخرج
إلا للدفاع عن المسلمين ولم يكن يريد الحرب لذاتها ولا يريد إرغام

(١) قدر من المال يدفعه أهل الذمة للمسلمين .





فتملكهم الرعب وفروا هاربين

الناس على دخول الإسلام بالسيف فقد رجع الجيش إلى المدينة بعد أن آمن رسول الله حدود الدولة من ناحية الشمال بما عقده من معاهدات .

غدرٌ مُبَيَّن كُشِفَهُ اللهُ :

وفي طريق العودة إلى المدينة اجتمع نفرٌ من الرجال الذين كانوا يظهرون الإسلام وفي قلوبهم كفرٌ وترددٌ ونفاقٌ واتفقوا على أن يدفعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ناقته ، عند مروره بالعقبة التي كانت تقع بين تبوك والمدينة ولأنَّ المرورَ بالعقبة يجعل الإنسان مضطراً إلى أخذ طريقٍ مظلمٍ ضيقٍ فقد قرروا أن يدفعوا رسول الله من فوق ناقته إلى الوادي ثم ينقضوا عليه ليقتلوه . .

وفي الطريق أخبر الله رسوله الأمين بهذه النية . . فماذا فعل النبي؟؟

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن ينادي المنادي :

- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يسلك العقبة ، فلا يسلكها أحدٌ ، واسلكوا بطن الوادي ، فإنه أسلك لكم وأوسع .

فسار الناس في بطن الوادي ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة وكانت شديدة الظلمة ، ولاحظ رسول الله أنَّ



رجلين من أصحابه يسيران معه أحدهما أمامه والآخر خلفه . .
وبعد قليل جاء رجال ملثمون يخفون وجوههم وبدءوا الاقتراب
من سيد الخلق في حذر وحيطه وفجأة صرخ فيهم رسول الله . .
فتملكهم الرعب وفرّوا هاربين واختلطوا بالناس الذين كانوا
يسرون في الوادي الواسع !

وبعد أن مرّ رسول الله من العقبة أمر بإحضارهم وأخبرهم بما
قالوا وعزموا عليه فتلعثموا وراحوا يحلفون أغلظ الأيمان ، ما قالوا
وما أرادوا قتله .

فعفاهم ورفض أن يقتلهم وقال :

- « أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

ثم دخل حزيناً إلى عريشه ^(١) فنزل قول الحق تبارك وتعالى في
سورة التوبة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ
وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُبَايِعُونَكَ لَمْ يُبَايِعُوا ﴾ ^(٢) .

وبعد ذلك توجه جيش المسلمين إلى المدينة وعندما اقتربوا
خرج الناس للقاء رسولهم الكريم والاطمئنان على أهلهم وذويهم
وخرج معهم الصبيان والنساء وعندما علموا أن المسلمين بخير

(١) خيمة من الخشب ويظل عليها .

(٢) سورة التوبة : ٧٣ - ٧٤ .





وبعد ذلك توجه جيش المسلمين إلى المدينة وعندما اقتربوا خرج الناس للقاءهم

صعدت الفتيات إلى أسطح المنازل ورُحْنَ - يُنْشِدْنَ ويغنين فرحاً
بَعُودَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - .

المخلفون :

لما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة بدأ بالمسجد
فصلى ركعتين شكراً لله وحمداً على ما وصلت إليه مكانة المسلمين
وهيبتهم في صدور الناس حتى أنهم باتوا يخشون ملاقات المقاتلين
المسلمين ، ثم جلس قليلاً ولاحظ أن المنافقين الذين تخلفوا عن
غزوة تبوك يتسربون داخل المسجد يقدمون خطوة ويرجعون
خطوات فدعاهم رسول الله . . فراحوا يعتذرون إليه ويحلفون له ،
وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله علانيتهم ،
وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم ^(١) إلى الله ثم جاءه « كعب
بن مالك » وسلم على رسول الله وقلبه يخفق . .

فتبسم له الرسول الكريم تبسم الغضب وقال له :

- مَا خَلَفَكَ ؟ ألم تكن قد اشتريت ما تركب عليه ؟

- والله يا رسول الله ما كان لي عُذْرٌ ، وكنت قوياً ميسراً ولكني
تخلفت . . ولا أحب الكذب على الله وعلى رسوله . . ثم طأطأ
رأسه خجلاً وحياءً من الله ورسوله .

(١) داخل أنفسهم وضمايرهم .

فقال صلى الله عليه وسلم :

أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك .

ثم جاء اثنين صادقان وقالا مثل ما قال كعب . . فأمر رسول

الله الناس ألا يكلموا هؤلاء الثلاثة ، حتى يقضى الله فيهم .

ولم يكلمهم الناس خمسين ليلة . . حتى ضاقت عليهم الدنيا

واشتد كربهم وأظلمت المدينة في وجوههم . . فنزل قول الله تعالى

في سورة التوبة :

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ (١) .

ولما علم الناس بهذه الآيات ذهبوا إليهم وأخبروهم بما نزل فيهم

من القرآن وبشروهم بعفو الله ورسوله فسجدوا لله شكراً .

مسجد الضرار :

قبل سفر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك . . . ذهب

وفد من المتظاهرين بالإسلام يخبرون رسول الله بما يعزمون على

إقامته من مسجد للعبادة والتجمع على ذكر الله . . ومكان لذوى

(١) التوبة ١١٨ .

الحاجاتِ ومأوىً في الليلة المطيرة وقالوا له :

- هلاً أتيت إلينا لتصلّى معنا فيه ؟

فاعتذر رسولُ الله ﷺ لأنّه على مشارفِ سفرٍ وقال لهم :

- لو قدّمنا - إن شاء الله - أتيناكم ، فصلينا لكم فيه .

فلما قدّم رسولُ الله ﷺ صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة . . وراح ينظرُ في أمرِ المتخلفين عن الجِهَادِ . . نزل قولُ الله تعالى في سورة التوبة :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ^(١) وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا ^(٢) لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ^(٣) ۖ ﴾

وفي الحالِ أرسلَ رسولُ الله ﷺ اثنين من أصحابِه إلى المسجدِ يحملانِ الشُّعْلَ الحارقةَ وأمرهما أن يحرقوه ويهدّموه عياناً . فقفزَ المنافقونَ مذعورين من شدةِ اللّهبِ ونظرَ أهلُ المدينةِ إلى انهيارِ آخرِ ما بنى المنافقونَ في المدينة .

(١) أقامه المنافقون ليكيدوا فيه للمسلمين .

(٢) ترصداً لقدم أعداء الإسلام من الروم .

(٣) التوبة : ١٠٧ .



براءة :

اجتمع أبناء المدينة في المسجد بعد صلاة المغرب وراحوا يتحدثون :

قالت فتاة صغيرة لم تتجاوز الحادية عشر :

- إن أيام الحج اقتربت وأنا أتعجب وأسأل . . أيجوز أن يطوف المسلمون مع المشركين مع العلم بأن المشركين يطوفون حول الكعبة عرايا من ملابسهم وهذا لا يتفق والإسلام ؟
- فقالت طفلة أخرى :

- وأنا كذلك لا أعرف كيف سيطوفون وعوراتهم مكشوفة وهم يصفرون ويصفقون . . بينما المسلمون يقولون لبيك اللهم لبيك ويدعون الله في أدب وخشوع ؟

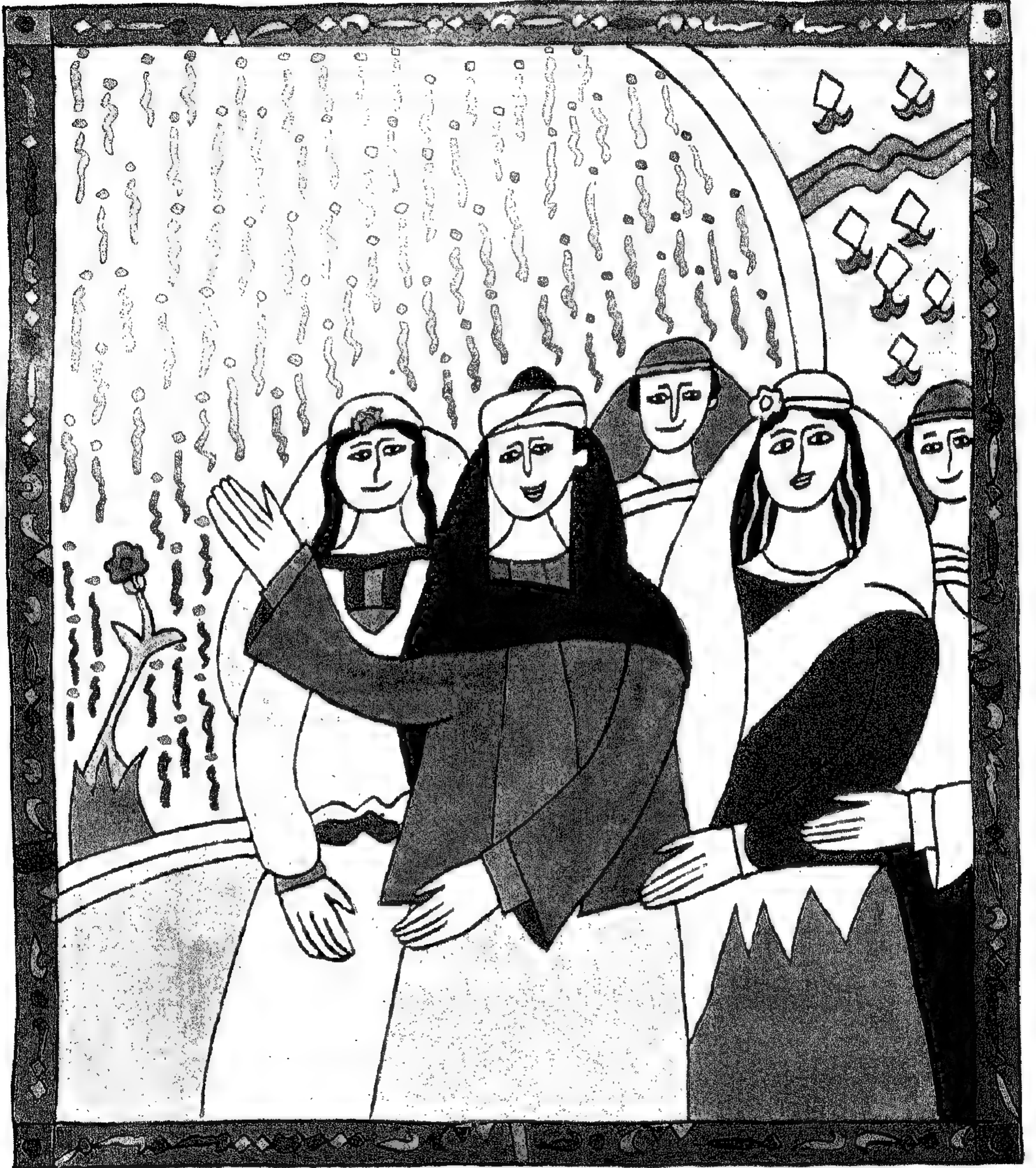
وعندئذ قال فتى جاوز الرابعة عشر لكبيرهم :

- نعم كيف سيحدث هذا الهرج ؟ كما أن المسلمين موحدون لله والمشركين من العرب القادمين إلى مكة في موسم الحج يشركون مع الله غيره ستتضارب العقائد حتماً !!

قال كبير الأبناء وقد اشترك مع رسول الله في بعض الغزوات :

- إنى في الحقيقة أتعجب مثلكم . . بل وأعلم أن هذه العناصر المشركة معادية للإسلام وأهليه ، وهى لا شك تتحين





اجتمع أبناء المدينة في المسجد بعد صلاة المغرب .. وراحوا يتحدثون

الفرصة لإثارة الفتن والبلبل في نفوس المسلمين الجدد لتردهم عن دينهم إن استطاعوا . . فبقاء هذه العناصر في الدولة الإسلامية غير مأمون العاقبة .

وعندئذ قالت صغرى الفتيات :

لماذا يسكت رسول الله على هذا ؟ ! بل ويغفر لهم ويسامحهم دائماً ؟ !

لماذا لا يحدّد رسول الله صلى الله عليه وسلم موقفه من المشركين في جزيرة العرب ؟

وظلّ أبناء المدينة يتكلمون مع أهليهم في هذا الشأن وكلهم خوف على دولة الاسلام الوليدة من أي محاولات جديدة للقضاء عليها .

حجّ أبي بكر :

بعث رسول الله أبا بكر أميراً على الحجّ ليقيم بالمسلمين المناسك فخرج أبو بكر بالحجيج مؤلياً وجهه إلى المسجد الحرام ، وبعد يوم أو يومين . . نزل سيدنا جبريل بسورة براءة والتي حدّد فيها موقف المسلمين من بقايا المشركين في جزيرة العرب ووضع الحدّ الفاصل بينهما .



﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (١).

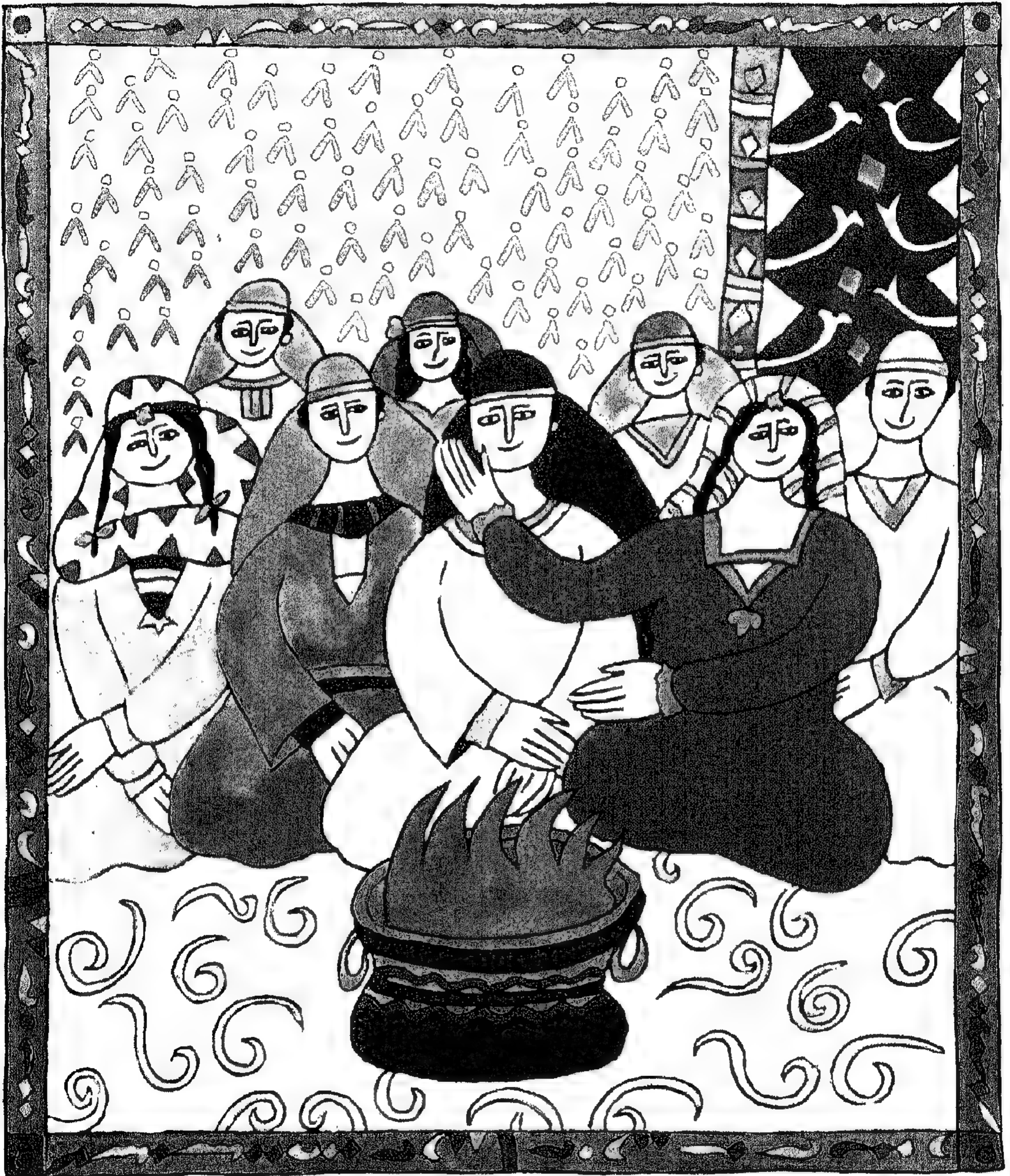
وفي الحال بعث رسول الله بهذه الآيات مع علي بن أبي طالب ليُلحق بأبي بكر الصديق ليُعلنها على الناس يوم الحج الأكبر .

أبناء مكة :

ذهب أبناء مكة من الصبيان والفتيات إلى مناسك الحج مع آبائهم وأمهاتهم ولما كان يوم النحر « أي الذبح » وهو يوم حافل في منى حيث يجتمع الحجاج من كل فج . . ويتلاقى الناس ويتشاورون في أمور دينهم ودنياهم . . وقف أبو بكر يتلو آيات سورة براءة والناس يستمعون ويكبرون ويهللون لأن هذه الآيات قد حسمت موقف الإسلام من الشرك . .

وفي المساء اجتمع أبناء مكة حول نارٍ أوقدوها وراحوا يتسامرون وكلهم رغبة في الحديث عن آيات سورة براءة .
قال صبي لم يتجاوز العاشرة :

(١) التوبة : ١-٣ .



وفي المساء اجتمع أبناء مكة حول نار أوقدوها

إِنَّ أَبْنَاءَ مَكَّةَ يَسِيرُونَ فِي الشُّورَاعِ يَرُدُّونَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ لِعَلِيٍّ
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ .

« لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ »

« وَلَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ »

« وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ »

« وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ فَهُوَ إِلَى مَدَّتِهِ »

ـ قال شابٌّ قد حضرَ بعضَ الغزواتِ :

نعم كانَ لا بدَّ من أجلٍ تحقيقِ أَمَنِ الدَّولَةِ أَنْ يَتَحَدَّدَ مَوْقِفُهَا مِنْ
هَذِهِ الْعُنَاصِرِ الَّتِي لَمْ تَدْخُلِ الْإِسْلَامَ بَلْ وَتَتَرَبَّصُ بِهِ الدَّوَائِرُ . فَلَا بَدَّ
مِنْ قِتَالِهِمْ أَوْ إِخْرَاجِهِمْ مِنْ بَيْنِنَا .

ـ وقال صبيٌّ آخرٌ :

لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءَةٍ :

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ـ وقالت فتاةٌ ذكيةٌ كانت تحسنُ الاستماعَ :

(١) سورة التوبة : ١٣ .

بل لقد أمرنا الله في سورة براءة بقتالهم صراحةً فقال تعالى :
﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ،
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾^(١) .
- وقال أحدُ فتيانِ مكة :

الأهمُّ من ذلك أنَّ المشركين لن يعمرُوا بيتَ الله ، ولقد قال
تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى
أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ
خَالِدُونَ ﴾^(٢) .

- وقالت طفلةٌ صغيرةٌ لم تتجاوز التاسعة :

لقد سمعتُ أبا بكر الصديق وهو يتلو الآياتِ وكنتُ أحاولُ
حفظها ولكن عندما علمتُ قولَ الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾^(٣) حفظتها وظللتُ أكررها حتى أسمعها
لكم .

(٢) سورة التوبة : ١٧ .

(١) سورة التوبة : ١٤

(٣) سورة التوبة : ٢٨ .

— وقال صبي أسود اللون من أبناء العبيد الذين أسلموا
وأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد بلغ من نقاء الإسلام ورحمته أنه لم يأخذ المشركين فجأةً
وينقض عليهم ويقتلهم ويكون ذلك غدرًا وهم غافلون ! بل لقد
أنذرهم علانيةً وأعطاهم مهلةً كافيةً . . أربعة أشهر يسيحون في
مكة يللمون أشياءهم ويدبرون أحوالهم ويصفون تجارتهم فهذا
هو العدل مع الأعداء والرحمة والأمانة مع الخصوم .

فقال تعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ،
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ (١) .

وسألت طفلةً صغيرةً :

« لم أفهم معنى الآية التي تقول » :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى
يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢) .

مامعنى الجزية ؟

(٢) التوبة : ٢٩ .

(١) التوبة : ١-٢ .

قال أكبرهم سنًا :

الجزية^(١) هي ضريبة مالية يدفعها أهل الكتاب من النصارى أو اليهود إذا كانوا يعيشون في دولة إسلامية في أمان ولا يحاولون الخيانة أو الغدر ولكنهم لا يشاركون في الدفاع عن الدولة في حالة الحرب ويقوم المسلمون بالدفاع عن الدولة وحدهم ومتى أعطوا الجزية وجب على المسلمين تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم ، ومعاملتهم بالعدل والمساواة .

قالت فتاة ناضجة :

إن نبينا الكريم . . قال : « من عادى لي ذمياً فقد آذنته بحرب منى »
وقال أيضاً :

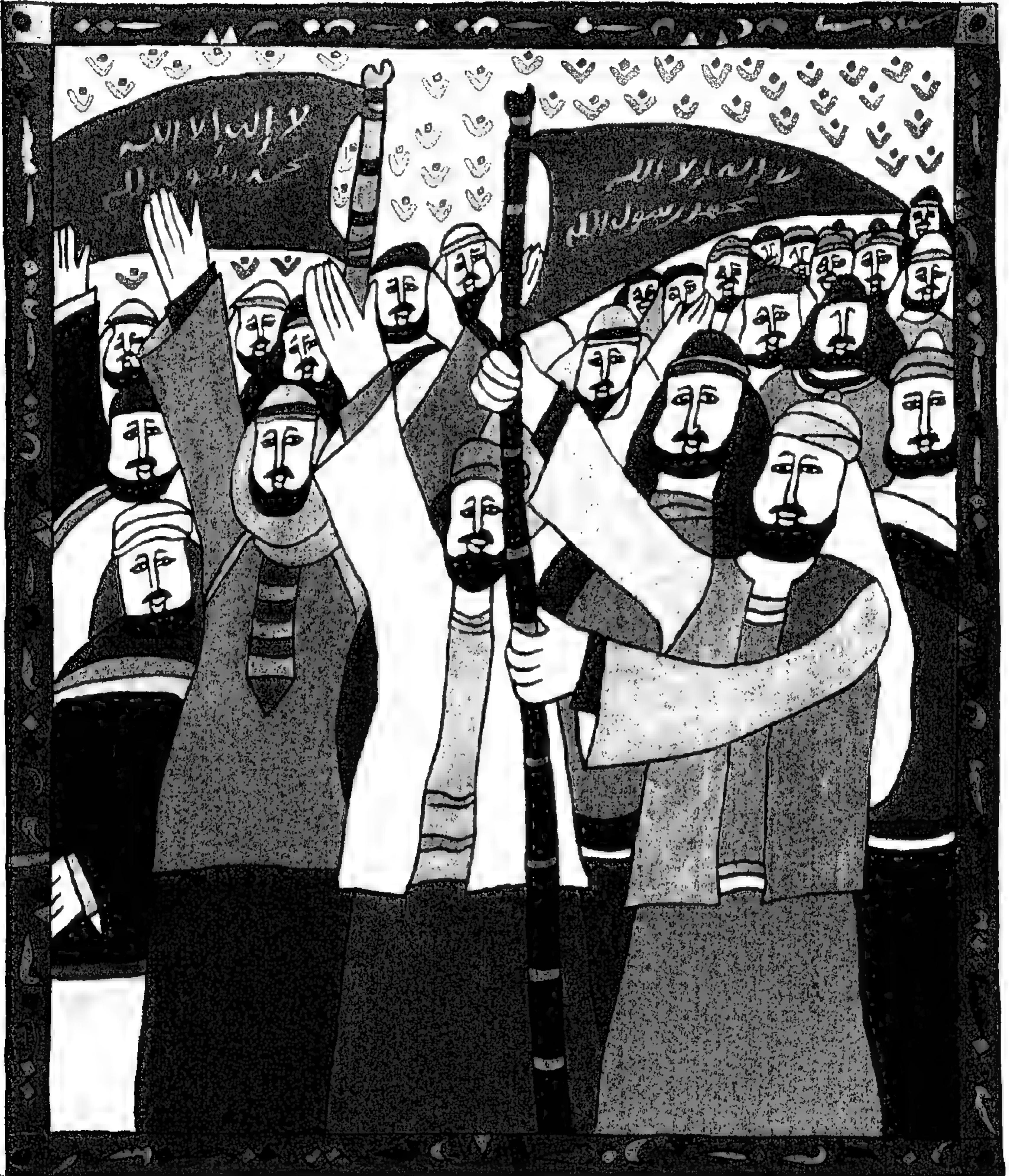
« من عادى لي ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة » فلا يجب أن ن ظلم أهل الكتاب^(٢) في ديار الإسلام ولا نرهقهم ولا نكلفهم ما لا يطيقون ومن يفعل ذلك يحارب رسولنا الكريم ويكون خصمه في الدنيا والآخرة .

(١) قيمة الجزية هي : ديناران للأغنياء ودينار لأوساط الناس ونصف دينار للعمال وليس على الفقراء ولا النساء والأطفال شيء .

(٢) أهل الكتب السماوية من اليهود أو النصارى .



قالت فتاة ناضجة : إن نبينا الكريم قال : من عادى ذميا فقد أذنته بحرب منى



أقبلت الوفود من هؤلاء وهؤلاء تعلن خضوعها للإسلام .

حَجَّةُ الْوَدَاعِ

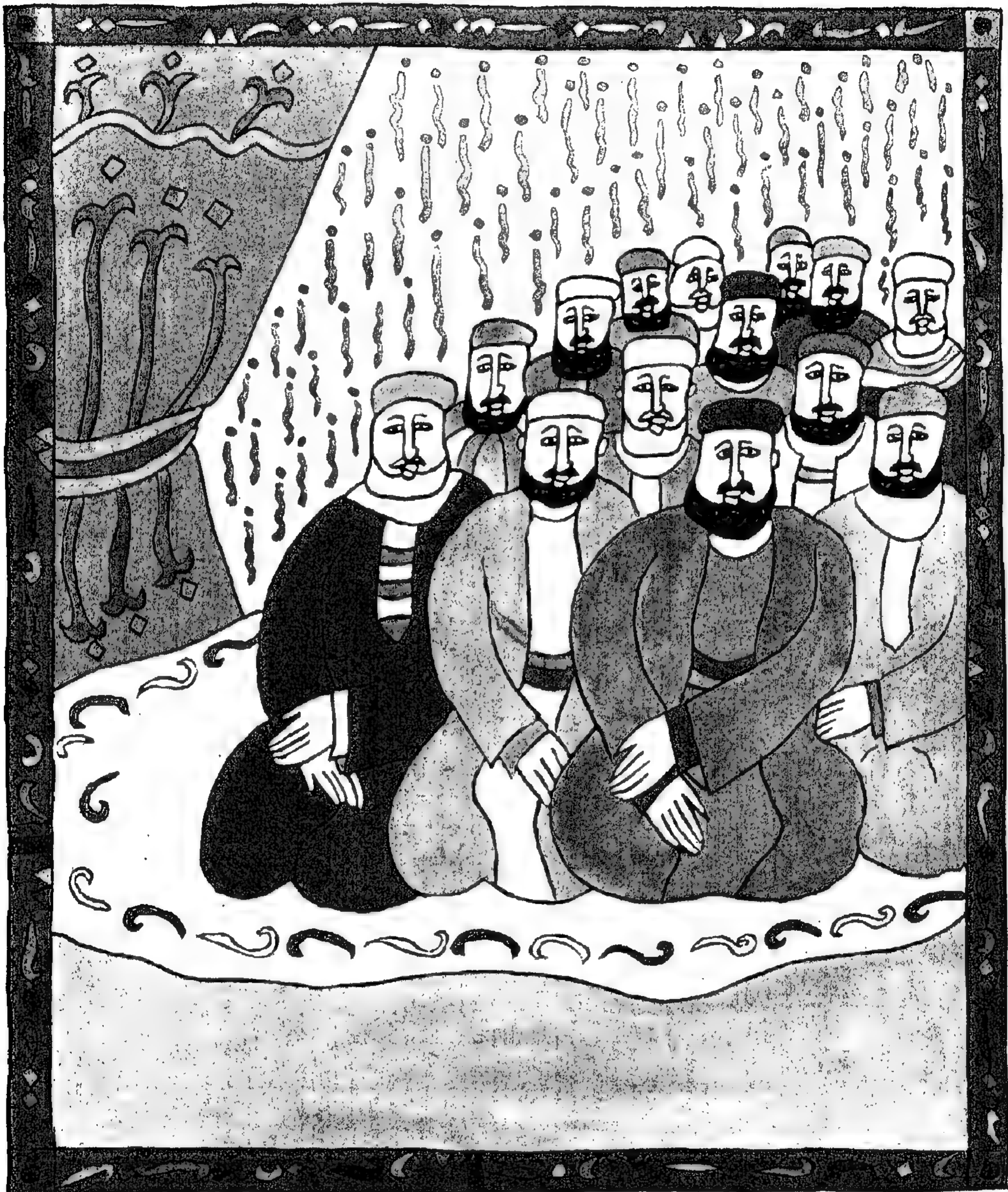
كَانَ لِلصَّيْحَةِ الَّتِي نَادَى بِهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
أَثَرُهَا الْعَمِيقُ فِي بَقَايَا الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ . . . كَمَا شَعَرَ أَهْلُ
الْكِتَابِ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ أَنَّ مِنَ الْخَيْرِ لَهُمْ أَنْ يَسْتَظِلُّوا بِرَايَةِ
الْإِسْلَامِ وَيَحْتُمُوا بِحِمَاهُ . . . فَأَقْبَلَتِ الْوُفُودُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ تَعْلُنُ
خُضُوعَهَا لِلْإِسْلَامِ وَدَخُولَهَا تَحْتَ رَايَتِهِ فَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ دَخَلُوا فِي
الْإِسْلَامِ . . . وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ وَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ عَلَى
دِينِهِ وَرَضِيَ أَنْ يَدْفَعَ الْجِزْيَةَ فَدَخَلَ فِي أَمَانِ الْمُسْلِمِينَ وَحِمَايَتِهِمْ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ رَسُولُ اللَّهِ اسْتِقْبَالَ جَمِيعِ الْوُفُودِ وَتَلَطَّفَ مَعَهُمْ وَقَدْ
فَرَّشَ عِبَادَتَهُ لِنَصَارَى نَجْرَانَ ^(١) وَطَلَبَ مِنْهُمْ الْجُلُوسَ عَلَيْهَا . . .
وَكَانَ يَزُورُ مَرْضَاهُمْ وَيَشِيعُ جِنَازَتَهُمْ وَلَقَدْ حَاوَلَ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ أَنْ
يَقُومَ مِنْ طِبَائِعِهِمْ وَيَمَلَأَ نَفُوسَهُمْ بِأَسْمَى الْأَخْلَاقِ الَّتِي تُسَاعِدُهُمْ
عَلَى الْعَيْشِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَمَانٍ وَسَلَامٍ وَمَحَبَّةٍ .

وَهَكَذَا انْقَضَتْ السَّنَةُ الْعَاشِرَةُ فِي اسْتِقْبَالِ الْوُفُودِ وَأَنْزَلَ اللَّهُ
سُورَةَ النَّصْرِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . . إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ،

(١) النصارى من أهل اليمن .





احسن رسول الله إستقبال جميع الوفود .. وفرش عباءته لنصاري نجران

ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . . فسبح بحمد ربك
واستغفره إنه كان توابا .

حَبَّةُ الْوَدَاعِ :

عَلِمْتُ الْقَبَائِلُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَارَجَ إِلَى
مَكَّةَ لِيُؤَدِّيَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ ، فَأَقْبَلَتِ الْوُفُودُ عَلَى الْمَدِينَةِ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا
حَتَّى أَنَّ عِدَدَ الْخِيَامِ الَّتِي ضُرِبَتْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ تَجَاوَزَتْ الْمِائَةَ أَلْفَ
كُلُّهُمْ فِي شَوْقٍ لِلْحَجِّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

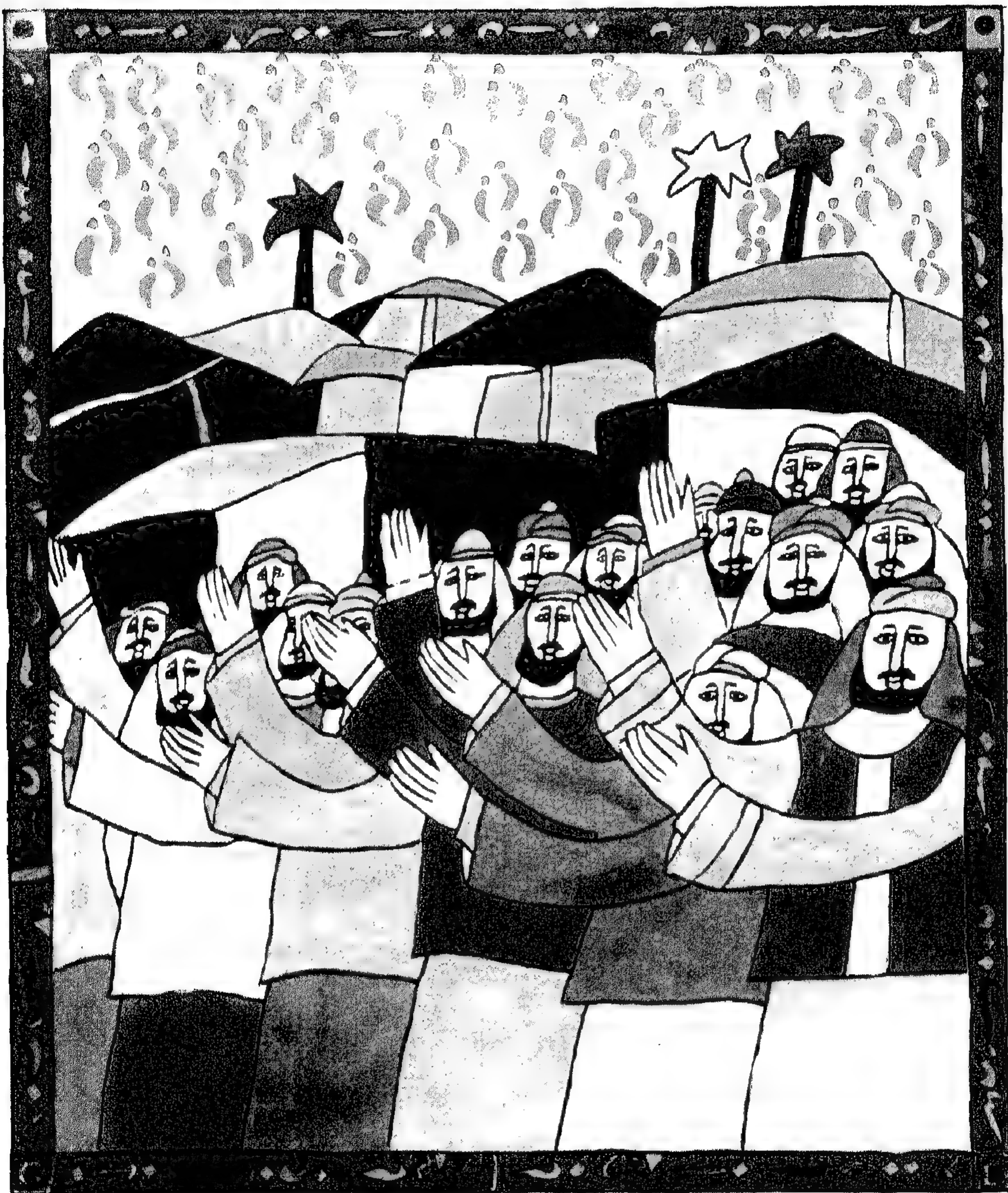
وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَتَهُ ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَيْهَا وَهَمَّتْ بِهِ أَهْلٌ
مُلبِّيًا : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . . لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ . . إِنَّ
الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ . . لَا شَرِيكَ لَكَ » وَانْطَلَقَ الْحَجَّاجُ
يُلبُّونَ مِنْ خَلْفِهِ . . وَأَصْدَاءُ أَصْوَاتِهِمْ تَدْوِي فِي الْفُضَاءِ وَكَأَنَّ
الْكُونَ كُلَّهُ يَلْبِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ نَهَارًا وَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى
الْبَيْتِ الْحَرَامِ قَالَ :

« اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَمَهَابَةً . . وَزِدْ مَنْ
عَظَّمَهُ مِنْ حَجَّةٍ وَاعْتَمَرَةٍ - تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً وَبِرًا .

وَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ثُمَّ انْتَهَى فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ
فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَسَعَى بَيْنَ الصُّفَا وَالْمِرْوَةِ سَبْعًا فَلَمَّا
انْتَهَى ، أَمَرَ مَنْ لَمْ يَسُقِ الْهَدْيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَحَلَّلَ مِنْ إِحْرَامِهِ





فأقبلت الوفود .. أفواجًا .. أفواجًا



وكان ربيعة ابن أمية بن خلف واقفا تحت صدر الناقة

إلى التَّروِيَةِ^(١) وهو اليومُ الثَّامِنُ من ذِي الْحِجَّةِ ، ثم أَهْلَ^(٢) بِالْحَجِّ من ذلك اليوم عند الخروجِ إلى مِنى .

باتَ رسولُ اللَّهِ في مِنى ثم أَصْبَحَ فَصَلَّى بها الصُّبْحَ ثم سارَ إلى عَرَفَةَ ، وحينَ رأى الشَّمْسَ قد طَلَعَتْ وصارَ بِيْطِنَ عَرَفَةَ وَقَفَ على راحلتهِ فخطَبَ النَّاسَ خطبةَ الوداعِ .

وكانَ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ والصِّبْيَانُ والفتياتُ يتابعونَ رسولَ اللَّهِ حركةً بحركة .

وكانَ « ربيعَةُ بنُ أميَّةَ بنُ خلفٍ » واقفاً تحتَ صدرِ الناقةِ ، وكانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ ، كلما قالَ رسولُ اللَّهِ كلمةً صرَّخَ بها ربيعَةُ في النَّاسِ حتَّى يسمَعَ الجميعُ وراحَ النَّاسُ يردُّونَ كُلَّ ما يسمعونَ .

فلما انتهى رسولُ اللَّهِ من خطبتهِ أمرَ بلالاً فأذَّنَ للصلاةِ ، وجمعَ رسولُ اللَّهِ بينَ الظَّهِيرِ والعَصْرِ جَمَعَ تَقْدِيمَ وظلَّ يدْعُو ويستغفرُ حتَّى غابتِ الشَّمْسُ ثم أَفاضَ من عَرَفاتٍ إلى مُزْدَلِفَةَ^(٣) فجمعَ الحصى وصلى فيها المَغْرِبَ والعِشاءَ ثم باتَ بها ثم صلى الفَجَرَ ثم ركبَ ناقتهُ وأتى «المَشْعَرَ الحَرَامَ»^(٤) فذكرَ اللَّهَ كثيراً « فاذكروا اللَّهَ عند

(١) من مناسك وشعائر الحج .

(٢) نادى في الحج « لا إله إلا الله » ورددوا خلفه .

(٣) مكان بين عَرَفات ومِنى .

(٤) مكان بين مُزْدَلِفَةَ ومِنى .

المشعر الحرام» (١) ثم دخل منى وهناك استقبل العقبة الكبرى (٢) ورمى سبع حصيات ثم ذهب إلى المنحر فنحر بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة وأمر علي بن أبي طالب فنحر باقيها .
ثم حلق وتطيب وقص أظافره ولبس ثيابه . . واستمر رسول الله يرمى الجمار عند زوال الشمس في أيام التشريق (٣) الثلاثة ثم نزل مكة فودّع البيت ثم انصرف راجعاً إلى المدينة .

اجتماع المسجد :

عندما عاد الحجاج إلى المدينة كان عدد كبير من الشباب والصبيان والفتيات ينتظرون رجوع أصدقائهم من الحج ليقصوا عليهم أخبار هذه الرحلة وما قيل فيها وعقب صلاة المغرب جلس أبناء المدينة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال صغيرهم وقد بلغ التاسعة من عمره :

- مشتاقون لمعرفة ماذا حدث في رحلة الحج .

قال أحد الفتيان الذين تمكنوا من الحج مع رسول الله :

- لقد كان حجاجاً عظيماً مع رسولنا الكريم . . ولقد تعلمنا منه

المناسك كلها . . وكانت أيام الحج فرصة ذهبية ليتعرف المسلمون

(١) سورة البقر آية ١٩٨ .

(٢) مكان رمى الجمرات وهي ثلاث عقبات الكبرى والوسطى والصغرى .

(٣) أيام التشريق هي اليوم الثاني والثالث والرابع من أيام عيد الأضحى .





وعقب صلاة المغرب جلس أبناء المدينة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

بعضهم البعض ويعقدوا مؤتمرات عديدة لبحث كيفية النهوض بالدولة الإسلامية . . ولقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة رائعة تحتوى على مجموعة من الوصايا حتى تتقدم الأمة ولا تتخلف .

قال فيها :

أيها الناس . . اسمعوا مني أيين لكم . . فإنني لا أدرى : لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس :

إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا
« ألا هل بلغت » ؟ قال المسلمون : نعم . . قال « اللهم فاشهد » .

وعندئذ تدخلت فتاة في الثالثة عشرة من عمرها قائلة :

نعم لقد اقشعرت أبداننا ونحن نسمع أن الكلام في أعراض الناس حرام مثل القتل ومثل السرقة كحرمة البيت الحرام ، ولقد قال رسول الله في خطبته :

« لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ثم

قالت متعجبة :

هل يعقل أن يأتي زمان على أمة محمد يضرب المسلم أخاه

المسلم ؟ ! ياللهول .



وَعَلَّقَ صَبِيٌّ تَجَاوَزَ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ عَلَى كَلَامِهَا قَائِلًا :
نَعَمْ قَدْ يَحْدُثُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فُرْقَةٌ وَعَدَاوَةٌ لِأَنَّ نَبِيَّنَا الْكَرِيمَ قَالَ :
« إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَيْسُ أَنْ يُعْبَدَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي
التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ » وَالتَّحْرِيشُ هُوَ فُسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَالْإِيقَاعُ بَيْنَ
النَّاسِ وَهِيَ الْحَالِقَةُ لِأَنَّ رَسُولَنَا الْكَرِيمَ قَالَ :
إِنْ فُسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ . . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَخْلُقُ
الرَّأْسَ ؟

قَالَ : لَا ، وَلَكِنَّهَا تَخْلُقُ الدِّينَ . . هَذَا الْكَلَامُ قَدْ سَبَقَ أَنْ
تَحَدَّثَ عَنْهُ سَيِّدُ الْخَلْقِ حِينَ قَالَ : إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا
فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ .

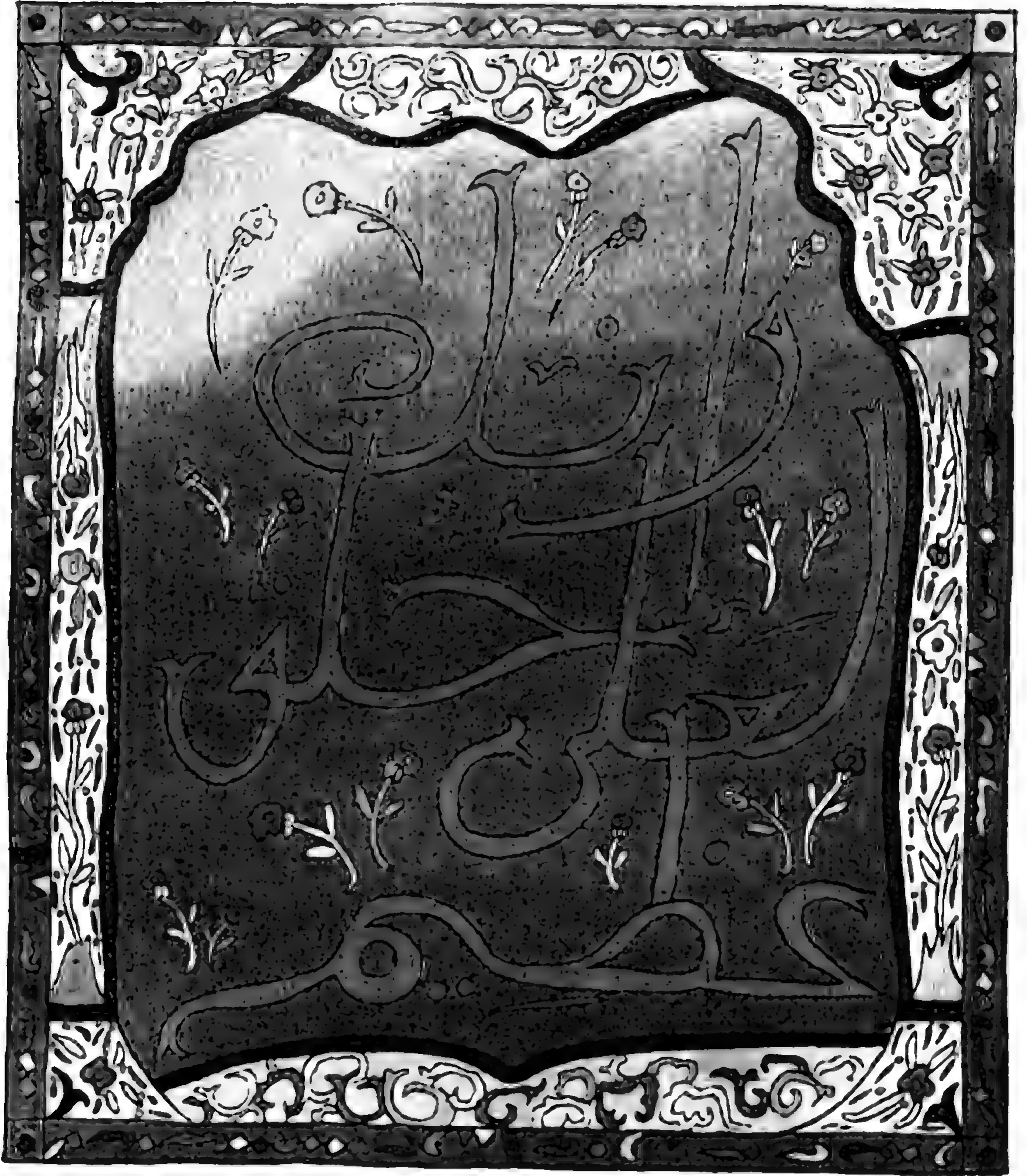
وَعَادَ الْفَتَى الَّذِي حَجَّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ يُؤَكِّدُ كَلَامَ الصَّبِيِّ فَقَالَ :
نَعَمْ . . نَعَمْ . . بَلْ لَقَدْ كَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ التَّحْذِيرَ مِنْ إِيقَاعِ
الشَّيْطَانِ بَيْنَ الْإِخْوَةِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَيْسُ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ ، وَلَكِنَّهُ رَضِيَ
أَنْ يُطَاعَ فِيهَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحْقِرُونَهُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى
دِينِكُمْ » .

وَقَالَتْ فَتَاةٌ حَضَرَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ الْحَجَّ : -

لَقَدْ سَعِدْتُ كَثِيرًا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . يَكْرُرُ
كَلِمَةً : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ » أَيْ أَسِيرَاتٌ





وانك لعلى خلق عظيم « صدق الله العظيم »

إنما أخذتموهنَّ بكلماتِ الله فاتَّقوا الله في النساءِ واستوصوا بهنَّ خيراً» .

وقالتُ شابةٌ على وشكِ الزواجِ :
لقد سمعتُ رسولَ الله صلى عليه وسلم يردُّدُ على مسامعِ الرجالِ :

« ما أكرمهنَّ إلا كريمٌ وما أهانهنَّ إلا لئيمٌ » .

وفي أثناءِ حديثِ الأبناءِ : أذُنَ لصلاةِ العشاءِ . . فقاموا جميعاً للصلاة . . واصطفَ الرجالُ في الصفوفِ الأمامية والنساءُ والأطفالُ في الصفوفِ الخلفية .

ولم يحضر سيّدُ الخلقِ ليؤمِّهم كما تعودوا فانتظروا عدةَ لحظاتٍ . . وبعد قليلٍ . . حضر أبو بكرٍ وأخبرَ المسلمين بأنَّ رسولَ الله مريضٌ بالحُمى فخفقتْ قلوبُ المسلمين جميعاً لهذا النبا الأليم وتمالكوا أنفسهم . . وصلُّوا خلفَ أبي بكرٍ . . ثم عادوا إلى منازلهم والألمُ يعتصرُهُم ولكنَّهُم لا يتكلمون .

الرَّفِيقُ الْأَعْلَى .

وفي صلاةِ الفجرِ خرجَ الرِّجالُ والنِّساءُ والأطفالُ إلى المسجدِ وكلُّهم شوقٌ للاطمئنانِ على سيّدِ الخلقِ . . ولكنَّهُم فوجئوا بعدمِ وجودِهِ . . فأصابَهُم الجزعُ فلما شعرَ رسولُ الله بجزعِهِم خرجَ إليهم متوكِّئاً على عمِّهِ العباسِ وابنِ عمِّهِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ





اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً

وجلس بصُعُوبَةٍ على أَوَّلِ دَرَجٍ من السُّلَمِ وخطب قائلاً :
« أَيُّهَا النَّاسُ ، بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَخَافُونَ مَوْتَ نَبِيِّكُمْ !!! هَلْ خُلِدَ
نَبِيٌّ قَبْلِي فَأُخِلِدَ فِيكُمْ ؟ أَلَا إِنِّي لَأَحِقُّ بِرَبِّي وَأَنْتُمْ لَأَحَقُّونَ بِي » ثُمَّ
أَوْصَى الْمُهَاجِرِينَ بِالْأَنْصَارِ وَأَوْصَى الْأَنْصَارَ بِالْمُهَاجِرِينَ .
ثُمَّ عَادَ إِلَى حُجْرَتِهِ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ وَظَلَّ عَشْرِينَ يَوْمًا
يُمَرِّضُ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ وَالْحُمَّى تَعْتَصِرُهُ اعْتِصَارًا . . . وَكَانَ أَبْنَاءُ
الْمَدِينَةِ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ مَنْزِلِهِ وَيَدْعُونَ اللَّهَ لِنَبِيِّهِمْ وَيَتَطَلَّعونَ لَخُرُوجِهِ
لِلْمَسْجِدِ . . .

وَعِنْدَمَا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ بِمَشَاعَرِهِمْ تَحَامَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَرَأَقَ عَلَى
وَجْهِهِ وَجَسَمِهِ الْمَاءَ وَخَرَجَ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ وَهُوَ عَاصِبٌ
لِرَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ فَصَلَّى عَلَى أَصْحَابِ أَحَدٍ وَأَكْثَرَ
الصَّلَاةِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ثُمَّ قَالَ وَالْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْهُ بَغْزَارَةً :
« إِنَّ عِبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ
مَا عِنْدَ اللَّهِ » .

فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَتِمَّاكَ نَفْسُهُ فَقَالَ رَسُولُنَا الْكَرِيمُ « عَلَى
رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكُ » . ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ أَمَّنَ
النَّاسِ عَلَى فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ
خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا . . . وَلَكِنْ صُحْبَةٌ وَإِخَاءٌ وَإِيمَانٌ
حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا » .

ثُمَّ عَادَ إِلَى حُجْرَتِهِ . . . وَقَالَ : مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ .



ثُمَّ اضْجَعَ فِي فِرَاشِهِ وَاسْتَنَدَ عَلَى عَائِشَةَ وَلَا حَظَّتْ عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَثْقُلُ فِي حَجْرِهَا فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ يَقُولُ « بَلِ الرَّفِيقُ الْأَعْلَى فِي الْجَنَّةِ » .

وَصَعَدَتْ رُوحُ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ وَعَمْرُهُ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ ثُمَّ وُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ وَدَخَلَ النَّاسُ يَصَلُّونَ عَلَيْهِ جَمَاعَاتٍ يَتْلُو بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ ، دَخَلَ الرِّجَالُ ثُمَّ النِّسَاءُ ثُمَّ الصِّبْيَانُ وَدُفِنَ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

« مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ قُبِضَ » .

وَبَاتَ أَبْنَاءُ الْمَدِينَةِ حَوْلَ قَبْرِهِ الشَّرِيفِ . . يَرَدُّدُونَ . .

« اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْأَمَانَةَ وَأَدَّيْتَ الرِّسَالَةَ وَنَصَحْتَ الْأُمَّةَ وَجَاهَدْتَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَتَاكَ الْيَقِينُ » (١) .

فَصَلُّوا تُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . .

وَعَلَى آلِكَ وَأَصْحَابِكَ أَجْمَعِينَ . . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . .

(١) الموت .

ختم

واجتمع أبناء المدينة حول قبر نبيهم ووقف أحد الصبيان .
وقال هامسًا :

بأبى أنت وأمى يارسول الله . . أئى جهد بذلت وأى مشقة
عانيت ، وأى متاعب كابدت حتى تؤدى الأمانة وتبلغ الرسالة .
وقال صبي آخر :

نعم . . دعوت بالليل والنهار ويشهد على ذلك بطاح مكة
ودار الأرقم ، دعوت الناس جميعًا الصبى والشاب والشيخ ،
الرجل والمرأة ، العشيرة والقبيلة ، العربى والحبشى ، الرومى
والفارسى .

وقالت فتاة فى سن الرابعة عشرة باكية .

حملت دعوة الله إلى أقصى ماتحمل قدما إنسان أو راحلته
أسرت وأعلنت وجهرت ، وصَلْتُ كُتُبُكَ إلى كسرى وقىصر
والمقوقس ، تعرضت للناس لتبلغهم أو ليبلغوا أو ليحملوك لتبلغ
رسالة الله . ودعوت للرشد بالكلمة وحميت الدعوة بالجهاد فى كل
الظروف ومن جميع الأجواء . . كم تحملت ياسيدى يارسول الله .
وبكى الجميع من شدة التأثر . . فقالت فتاة سمراء بحرارة :
لكأنى بك وأنت تواجه الإعراض والتكذيب والاستهزاء والافتراء ،



المؤامرة بالسجن أو القتل أو النفى ، تجهم^(١) الأعداء . . إغراء السفهاء حتى كُسرَتْ رباعيتك^(٢) وذمى وجهك الكريم . . لكن لا عجب فأمّر الله في كل مراحل الرسالة يتتابع بالتبليغ .

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ « ١ - ٢ من سورة المدثر »

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ « ٢١٤ الشعراء »

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ « ٦٤ آل عمران »

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ « ١٥٨ الأعراف »

وعندئذ وقف شاب في السابعة عشر وقال معلقاً :

ولا عجب أن يكون الإصرار والمثابرة في تبليغ دعوة الله

فالرصد^(٣) في كل مكان تسجل الأداء وتراقب التنفيذ والله من

ورائهم محيط .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ

رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(٤) * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ

أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ .

« ٢٦ / ٢٧ / ٢٨ الجن »

(١) التجهم : الوجه الكريه . (٢) أسنان في الفك ، عليا وسفلى .

(٣) الملائكة المكلفة بكتابة كل ما يفعله الانسان فترصد كل كلمة وحركه .

(٤) في رصد الحركات والسكنات (الملائكة) .

رقم الإيداع ٩٦/٢٢٢٨
ISBN 977 - 09 - 0320 - 5

مطابع الشروق

القاهرة ٩٦ شارع حواء حسن - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
مصر ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٦٢١٣

سَيِّدُ الْخَلْقِ

الفتح المبين - حجة الوداع